شرح قَصيدة

للشَّيخ العارِف بالله عبْدالغَنيِّ النابُلسيّ

التي مطْلَعُها «لِذَاتي بذَاتِي»

ويليه:

«شرح رؤيا الشيخ عبدالله باكثير»

كلاهما للعلامة المحقّق

الحبيب أحمد بن ابي بكر بن سُمَيط باعلوي الحسيني

المتوفى سنة 1343هـ

اشرف على طبعه

السيد مصطفى بن علوي أبونمي باعلوي الحسيني

مريد الحبيب عمر بن أحمد بن سميط

اعتنى به

د . محمد أبوبكر عبدالله باذيب

تقْريظُ الحبيبِ العلامة المربِّي
عُمَر بن محمَد بن سالم بن حَفِيظ

الحمد لله الذي يُظهر إشاراتِ الجُود بمَنّ مِنْ حضرتِه ممدُود، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحْده لا شريك له الملكُ الحقُّ المعبود، وليس لأهلِ المعرفة به لسِواه وجودٌ، ولا غيرُه مقصُود. وأشهدُ أن سيدنا محمداً عبدُه ورسولُه أكرَمُ من تحقق بالعبودية، وأعظمُ من تولته الربوبية صلى الله وسلم وبارك وكرم عليه وعلى آله أهل المزية، وأصحابه أهل المراتب العلية، ومن سَارَ في سبيلهم السوية، وعلى آبائه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين سَاداتِ أهل الخُصوصية، وعلى آلهم وصحبهم وتابعيهم والملائكة المقرَّبين، وجميع عباد الله الصالحين، وعلينا معهم وفيهم إنه أكرَمُ الأكرمينَ وأرحم الراحمين.

أما بعدُ؛ فقد سُرَّتْ قُلوبنا لما أرسلَ إلينا السيد المبارك ذُو البِرِّ والوفاء، الشريف مصطفى بن علوي أبو نميّ باعلوي، نسخةً من «شرح» سيدنا الإمام الحبيب أحمد بن أبي بكر بن عبدالله بن سُميط، للقصيدة العظيمة لسيدي العارف بالله عبدالغني النابلسي، التي مطلعُها:

لذاتِي بذاتي لا لكم أنا ظاهرُ وما هذه الأكوانُ إلا مظاهرُ

وأَخْبَرَ بعزمِه على طَبْع هذه الرسالة النافعة المفيدة الكريمة، الكبيرة الشريفة، الوجيزة العزيزة، التي حَمَلت تَقْريب الحقيقة، وإبراز معالم الطريقة، فكانت عروةً وثيقة، للمستمسكين بحبلِ الله من خِيَار الخليقة. أَبْدى فيها سيدنا الإمام أحمد بن أبي بكر معارفَ ولطائفَ وعلوماً وفُهُوماً ودَلَالاتٍ دَقيقَات، وحَقَائق قُدْسِيات عُلْويات شَرِيفات ، عظيمةَ النفع لأهلِ صدق التوجُّه إلى الرحمن، وطالبي نيلِ المعرفة الخاصة والمحبة الخَالصَة والوصول والرضوان.

وصَدَّرَهَا بترجمةٍ للمؤلف بقلم ابنه الإمام العارف بالله، السيد السَّنَد الكريم، الحبيب عمر بن أحمد بن أبي بكر بن سُميط، وكان فيها عزيزُ محتوى ترجمته، ونبأ عن طَرَفٍ من سَنَاءِ سَنِّي منزلته، وإشارةٌ إلى قَبَسٍ من نُورِ عَلِيٍّ رَفِيع درجته.

وبَارَك اللهُ في ظُهور هذه الرسالة وشرح هذه القصيدة الغَرَّاء، بأنفاسِ عارفٍ خاضَ بَحْرَ الحقيقة وجرى بذلك المَجْرَى.

فاللهُ يجعل في بروزها وظهورها نَفْعاً عظيماً، وخيراً جسيماً، ومدداً واسعاً فخيماً، وتنويراً وتطهيراً، وتقريباً وترقيةً للمُقْبِلينَ والمُتوجِّهين مِنْ قاصدي وجه الرَّحمن، والراغبين بالاقتداءِ بهَدْي سيد الأكوان، وورثته أهل العِرْفان.

وتَقبَّل اللهُ من كل مَن سَاهَم في إبرازها وإظهارها ونشرها بأيِّ وَسِيلة، وضَاعَف أُجورَهم وخُيُورهم، وأصلحَ بطُونَهم وظهُورَهم، وبَلَّغَهم من خيراتِ الدارين فوق الآمالِ في عافية.

وأَشَارَ البَرُّ الوَفِيُّ السيدُ مصطفى بن علوي أبو نمي، أنَّه يريدُ أَنْ يُبرزها وينشرَها في ذكرى حولية الإمام الشَّارح أحمد بن أبي بكر، وما أَعْجَب وأَحْسَن وأَطْيب أنْ تلتفَّ الأمةُ حَوْل كُبرائها ومَظَاهر إرث رسول الله فيها مِنْ أرباب الهدى واليقين، وتلك علامةُ الصحةِ في الفَهم للدِّين والعمل به، واسْتَرضاءِ ربِّ العالمين وطَلبِ قُرْبه. فبَارَك اللهُ في الاجتماعات،

وضاعف الانتفَاعاتِ، وبلّغ الأمنيات، والحمد لله أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً.

وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم

قاله بفمه /عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ ابن الشيخ ابي بكر بن سالم

بتاريخ 5 رجب الحرام سنة 1443هـ، بجمهورية مصر

ترجمة المؤلف[1]

بقلم ابنه/ الحبيب عمر بن أحمد بن سميط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نطق الوجُود بربوبيته، وترجمَ كلٍّ ما في الأرض والسموات عن ألوهيّته. والصلاة والسلام على سيدنا محمّدٍ أشرفِ بريته و على آله وأصحابه الذين قاموا بنصْرته، ومن جاء بعدهم لنصر شريعته.

ومنهم سيدي العلامةُ، الغنيُّ عن التعريف والعلامة، شهاب الدين، السيد الشريف أحمد بن أبي بكر بن عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد بن زين بن علي بن علوي بن عبدالرحمن بن عبدالله بن محمد سُمَيط بن علي بن عبدالرحمن بن أحمد بن علوي بن الفقيه أحمد بن عبدالرحمن بن علوي بن محمد صاحب مرباط بن علي خالع قسَم بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وابنِ فاطمة الزهراء البتول، بنت سيد المرسلين محمد.

قال والده: «كان ميلاده في جزيرة أنجَزيجه يوم الخميس لخمسٍ خلت من رجب سنة 1277هـ، وتفاءَلنا بتاريخه فوافق (ظهَر العالـم)». وكان قد بشره به قبلَ وجوده بنحْو عشرين سنةً الحبيبُ القطبُ أحمد بن عمر بن سميط[2]، قال له: سيولد لكَ ولدٌ يكون سميِّي، وفي خده شامةٌ سوداء. فكان كلما وُلد له مولودٌ تلمّح فيه تلك العلامة، حتى وجدها في صاحب

1. هذه الترجمة مأخوذة من مقدمة كتاب «الابتهاج» للمؤلف رحمه الله.
2. المتوفى بشبام حضرموت سنة 1257هـ.

الترجمة، فسماه بأحمد، اغتناماً للإشارة. ومع كونه أصغرَ أولاده كانَ يقدِّمه عليهم، وكثيراً ما كان يشير إليه بيدِه، ويقول: الولد هذا. لما كان يلمحُ فيه من ملامح الذكاءِ وعلامات النجابة.

ومات عام 1290هـ، وصاحبُ الترجمة في الثالثةِ عشَر من عمره، وقد تلقّى عليه طرفاً صالحاً من مبادئ علوم الدين وتأدب بأدبه، وكان مما أوصَى إليه أن لا يباشر شيئاً من الأسباب قبلَ أن يزور حضرموت. فكان أولَ رحلته إليها في عام 1298هـ، وأقام بشبام، وتزوج بها. وتردد إلى سيون وتريم، وأخذَ بهما عن كثيرين من العلماء المتمكّنين، وصحب جماعة من العارفين، وأجازه أكثر مشَايخه بمروياتهم ومؤلفاتهم.

[من شيوخه في حضرموت وغيرها]

قال في «وصيته» التي كتبها لي عند ما ذكر بعضَ شيوخه:

«[1] ومنهم: سيدي وسندي، العارف بالله، خليفة الشيوخ، الراقي مراتب أهل التمكين والرسوخ، عيدروس بن عمر الحبشي.

[2] وسيدي المعتقد المبجَّل، فضل بن علوي بن سهل، المتوفَّى بقسطنطنية، دار السلطنة العثمانية.

[3] وسيدي وشيخي، وملاذي ومرشدي ومؤيدي، علي بن محمد الحبشي، فقد لقّنني وألبسني، وأجازني إجازةً متصِلة الأسانيد، وكتبَ في جملة ما كتَب لي من الإشارات والبشاراتِ ما أثلج الفؤاد، وبشّر بالمراد، بل أذن بازدياد.

[4] وممن لقّنني وأجازني إجازةً متصلة الأسانيد، سيدي الجامع بين الشريعة والحقيقَة، مظهر الفيض الرباني، أحمد بن حسن بن عبدالله العطاس. كتب لي، نفعني الله به، في ذكر الأسانيد إلى أكابر أهل عصرِه، ورجال الغيب، ما تدق عنه العبارةُ، وتلطُف الإشارة.

[5] ومنهم: سيدي الفقيه العارف بالله، الثابت على قدم الأسلاف، عبيد الله بن محسن بن علوي السقاف. فقد لقنني وألبسني وأجازني، وكتب ما كتبَه لي في كراريس من الوصايا الجامعة، والتذكرة النافعة.

[6] وممن أجازني: سيدي الفقيه العارف بالله، مفتي الديار الحضرمية في زمانه، والمقدم على أقرانه في نشر العلوم، ومؤسس مدارسها ومجالسها في مدينة تريم، عبدالرحمن بن محمد بن حسين مشهور.

[7] وممن اجتمعتُ به وأجازني: السيد محمد الكيَّالي الحلبي.

[8] والشيخُ محمد الإنبابي، بمصر»، انتهى.

وممن اجتمع بهم وأخذ عنهم:

[9] الحبيب العلامة، عبدالله بن محمد الحبشي، بالحوطة.

[10] والحبيب العلامة، شيخان بن محمد الحبشي، بالغرفة.

[11] والحبيب العارف بالله، أحمد بن محمد المحضار، بدوعن.

[عودته إلى السواحل]

[12] ثم عاد إلى زنجبار، وقد ارتوى من فائض تلك الأنهار، فصرفَ بها الأوقات في المطالعات والمراجعات. وتردد إلى العلامة السيد عبد الحسين المرعشي التستريّ، وأحكم عليه علم المنطِق، حتى فاق فيه وأذعن له كل محقق.

[توليه القضاء في زنجبار 1300هـ]

وما زالَ يزداد على التحصيلِ حرصاً، والاستفادة فهماً، حتى ولاه السلطان برغش بن سعيد قضاءَ مدينة زنجبار، وذلك عام 1300هـ، فحمد الناس سيرته وعرفوا في الفَضْل منزلته.

[سفره إلى الآستانة ومصر والحرمين]

ولما كان عام 1303هـ، تاقت نفسه إلى السياحة في الأقطار، والاجتماع بعلماء الأمصار. فدخل الآستانة، وأقام بها نحو سنة، تعرف فيها بكثير من أرباب المظاهر العلمية، واختص بالملازمة السيدَ العارف فضل بن علوي بن سهل.

واتصل بالسلطان عبدالحميد، ولقي منه كمال الحفاوة، وقلَّده النيشان المجيديَّ الرابعَ، وأجرى له مرتباً.

ودخل مصر، وأخذ عن غير واحدٍ بها، وتردد إلى الأزهر.

ثم قصد مكة لأداء النسكين، وزيارة سيد الكونَين. ولم تطل بها إقامته لأمراضٍ اعترته، حتى إنه كان يقدم ويؤخر في السفَر إلى المدينة، وبينما هو كذلك فتح «ديوان سيدنا الحداد»، فكان أولُ بيتٍ وقعتْ عليه عينه قوله:

وإياكَ والتسويفَ والكسلَ الذي ... به يُبتلَى كم من غبيٍّ وخَاسرِ

فإنك لا تجْزِي نبيَّك يا فتى ... ولو جئتَه سعياً على العين سَائرِ

فقويَ عند ذلك عزمُه على الزيارة، وسافر مغتنماً للإشارة.

[من شيوخه بالحرمين الشريفين]

وأخذ بمكّة عن غير واحد من علمائها:

[13] منهم: السيد العلامة حسين بن محمد الحبشي.

[14] والسيد العلامة أبوبكر شطا.

[15] والشيخ العلامة محمد بن سعيد بابصيل.

[رحلته إلى جاوة والهند ثم عودته]

ودخل جاوه والهند وثاقن فيهما كثيراً من ذوي الفضل والأدب، وأرباب الكمالِ والحسب. ثم عاد إلى زنجبار، وقد قضى السلطان برغَشُ نحبَه، وخلفه على العرشِ أخوه السلطان خليفةُ بن سعيد، فاستماله إليه، وجدد توليته، وأعلى في منصب القضاء منزلته. وفي مدة إقامته في القضاء وهي أربعون سنةً، عاشر فيها سبعةَ ملُوك، وكلهم أقروه على ما كان عليه، وقلَّدوه على حسن خدماته الوسَامات السامية.

ولم يزل مكيناً وحظياً لديهم، وهو مع ذلك ينتقلُ في بروج الكمال، تنقل الهلالِ. حتى خضعت له كل مرتبة، وانتهت إليه رياسة العلمِ في أقطار السواحل قاطبَةً.

وفي عام 1309هـ، قدم زنجبارَ شيخُنا الشيخ عبدالله بن محمد باكثير، وتديرها، وأقبل على صاحب الترجمة وتعلق به، وتردد إليه، وقرأ عليه كتباً عديدة، وحصلتْ بينهما محبةٌ أكيدة، ولا زال بينهما الاختلاطُ والامتزاج، حتى اتحدت السرائر، وحقَّ لكل منهما أن ينشد قول الشاعر:

أنا من أهوَى ومن أهوى أنا   نحن رُوحَان حللنا بدنا

[زيارته الثانية لحضرموت]

ولم يزل صاحبُ الترجمة مدّة غيبته عن حضرمَوت وحالُه يصِفُ عظيم أشواقه إلى تلك الديار، حتى عاد إليها في عام 1316هـ، فابتهجَت بقدومه شبام، وخطبت وداده السراةُ والأعلام. ونظم التهاني في قدومه جماعة من الأدباء: منهُم العلامة الشيخ محمد بن محمد باكثير، ولا يحضرني الآن شيءٌ منها لأثبته.

وأقام بشبام مدة، وتزوج في أثنائها.

وتردد إلى سيؤن وتريم لزيارة معاهد السلف، واجتلاء أنوار الخلف، ولاسيما فريد الدهر، القطب الحبيب علي بن محمد الحبشي. فما زال يتعهَّد ساحاته العامرة، لاستنشاق نفحاتها العاطرة. وامتدحه بمدائحَ كثيرة، منها «الهمزية» التي مطلعها:

أنى يفي بمَديحكَ الإطراءُ	عجَز اليراعُ ولم يفِ الإمْلاءُ
الباع يقْصُر أن يحيط به كَما	في حضْرِه قد حارَتِ الشعرَاءُ
لكن بمَدْحِك تستنير يَراعتِي	ويلذّ لي الإنشادُ والإنشاءُ

ومنها «الحائية» التي مطلعها:

ذكر المتيَّمُ حسنَك الوضَّاحَا	فازداد شوقاً واستهام وباحَا
لا كنْتُ ممن برَّ في قسَم له	إن جالَ في قلبي سِواكَ وسَاحا
قلبي مصانٌ عن سِواكَ وحَقِّ من	جعلَ النفُوسَ تمازج الأرْواحَا

ومنها «الدالية» التي مطلعها:

رعيتُ علَى بُعْد المزار لكُم وُدَّا	فكونُوا على عهْدِ الوفا واحفَظُوا العَهْدا
أيا سَادتي رِفْقوا لحالي تفضّلاً	وما ضرّكُم أن تنجِزُوا منكم الوعْدا
إلامَ على النأيِ الفؤادُ مروَّعٌ	وحتى متَى أشكو التفرُّقَ والبُعْدا

وممن كان يصطفيه لمذاكرته في سيؤن: العارفُ بالله العلامة عبيد الله بن محسن السقاف، لا يزال يواصله، ويسمَعُ عنه ما يرويه وينقله.

ودخل حرَيضة، واجتمع بالعارف بالله، الشارب من المعرفة بأوسع كأس، الحبيب القطب أحمد بن حسن العطاس. وأقام لديه أياماً يجتبي من رياض علومِه، ويرتوي من زُلال فهومه، وبعدَما طاف أكثر البلاد، وقرَّ عيناً بزيارة معاهد الآباء والأجداد، عاد إلى زنجبار، وجعل يصرف أوقاته في التأليف، وخدمة الشرع الشريف.

* ومن مؤلفاته:

«منهل الوراد من فيض الإمداد بشرح أبيات القطب الحداد».
و: «تحفة اللبيب شرح لامية الحبيب».
و: «الكوكب الزاهر شرح نسيم حاجر».
و: «منهج الفضائل ومعرج الأفاضل» شرحٌ على (أحبَّتنا بنجد والصفيحِ).
وله: «حاشية على فتح الجواد»، بلغ فيها إلى صلاة الجمعة.
و: حاشية على النصائح الدينية تسمى «المطالب السنية»، بقي من تمامها شيء قليل.
وله: شرحٌ على قصيدة العارف النابلسي التي أولها:

لذاتي بِذاتي لا لكُم أنا ظاهِرُ ... وما هَذه الأكوان إلا مظاهِرُ

وله غير ذلكَ:

شروحٌ صغيرة، وتعليقات على كلام القَوم.
وله: «فتاوى» منتشرةٌ، لم يجمع منها إلا القليل.

ولـه: «تعليـقٌ» صغيـر علـى بعْض معانـي صيغـة صـلاة للقطـب الحبيـب علـي بـن محمـد الحبشـي التـي أولهـا: «اللهُمّ صلِّ وسلم باللسـان الجامعـة».
ولـه: «شـرحٌ» صغيـر علـى اصطـلاح الإمـام النـووي في خطبـة «منهـاج الطالبـين».

[قيامه بالدعوة والإصلاح]

وكان مـع اشـتغاله بالتأليـف، وتحملـه أعبـاء الفتوى، وقيامـه بأمـور القضـاء التـي ضـاقَ عنهـا الفَضـاء، لـم يـزل ناشـراً رايـةَ الدعـوة إلـى الله، منتصبـاً لإحيـاءِ طريقـة سـلفه العلويـين، باللطـف واللـين حتـى عمَّـت أسـرارها، وأشـرقت أنوارهـا، وفاحـت أزهارهـا.

[تحمله الأذى في سبيل الله]

وكانـت تـدور عليـه رحَـى الأذى مـن أهـل بلـده، ممـن ابتلوا بحَسـدِه، فيتلقـى أذاهـم بالصبـر والاحتمـال، ولا يقابلهـم إلا بالعفـو والصفـح، تخلقـاً بأخلاقـه.

ونافحـت مـرةً عنـه، فقـال: يـا ولـدي، إنمـا طريقتنـا الصبـر والاحتمـال، وبقيـة العمـر أعـزُّ مـن أن نصرفهـا في الـرد علـى هـذا وهـذا.
وخاصـم بعضُ طلبـة العلـم رجـلاً مـن المترسِّمين بالعلم، لكثـرة مـا يقـع في صاحـب الترجمـة، فاسـتدعى ذلـك الطالـب، وقـال لـه: إذا سـمعته بعـد اليـوم يقـع فيَّ دعْـهُ وشـأنَه، فـإن ذلـك حالُـه مـن مـدة خمـس وعشـرين سـنةً، ومـا قـد أجبتـه طـولَ هـذه المـدة. قلتُ: وكان مـع ذلـك يصِلُـه سـراً، وإذا لقيـه في الطريـق قابلـه بغايـة البشاشـة.

ومرةً تصدى له في الطريقِ بعضُ المشايخ، وجاهرَه بلواذع الكلماتِ التي يتلهب لسماعها القلب، فلم يكن جوابه إلا قوله: أحسنتَ يا شيخ فلان. قال من كان يرافقُ صاحب الترجمة وقتئذ: والله إني كنتُ أسمع تلك الكلماتِ وأحسُّ بها كوخْزِ الرماح في بطني. ولم أغب عنه إلا ذلكَ اليوم، حتى أرسل يستدعيني إليه، فلما أقبلت عليه، قال: نسير إلى الشيخ فلان، نطلب منه العفو. وتقدم وأنا خلفَه إلى دار ذلك الشيخِ، ولكن ما كان عندما أقبلنا عليه إلا أن أكبَّ على قدمَي صاحب الترجمة يعتَذِر إليه، ويطلب منه العفو باكياً. فقلت للذي حكى لي هذه الواقعة: يرحم الله القائل:

إذا مرِضْنا أتيناكُمْ نزوركمُ ... وتذنبونَ فنأتيكم ونعتَذرُ

ووقائعه في هذا الباب شهيرةٌ، لا حاجة إلى الإطالة فيها.

* * *

وأما إيثارُه، ومواساةُ ذوي الحاجات، وإكرام الضيف، وتأهيل الغرباء، وإصلاحُ ذات البين؛ فشيءٌ يستدعي تطويلاً يخرجنا عمَّا قصدناه من الإيجاز.

وبالجملة:

فحبُّه لصَلاح الخلقِ أجمعهِمْ ... سجيةٌ لم يحزْهَا قَطّ إنسانُ

[سعة علمِه وثناء شيوخه عليه]

وأما علومُه ومعارفُه التي أكرمه الله تعالى بها، فله اليدُ الطُّولى في جميعِ علوم الإسلام، وشهدَتْ له بذلك العلماءُ الأعلام، وأثنوا عليه، ونوَّه برفعةِ شأنه مشايخه وأكابر عصره.

قال شيخنا العلامة الشيخ عبدالله بن محمد باكثير، عندما ذكره في «رحلته إلى حضرموت»: «هو سيدٌ ديدنه التنزُّه في رياض العلوم والمعارف، والاقتطاف من أوراقها لثمَرات الحكم واللطائف. فريدُ دهره في التحقيق، ووحيدُ عصره في التدقيق، صحِبَ الأقطابَ والأكابر من مشايخ عصره، والأولياء العارفين من محققي علماء دهره، وحصلتْ له منهم الملاحظةُ والرعايةُ، والمدد والعناية. وشهدوا له بالفضلِ والكمال، وعدّوه من كمّل الرجال. ووقفوه على أسرار الطريق، وحقائق ما فيها، وسقَوه من حميَّا العلوم اللدنية صافيها. وكم أظهر الله تعالى ببركتهم على لسانه وقلمه ما دقَّ وخفي على الأفهام، وأفاضَ من زُلال ألفاظه العذْبة ما يروي عطشَ أكباد العلماء الأعلام، ويشهد له أنه في علومِ الحقائق والمعارف إمامٌ وأي إمام. كما أنه العمدَةُ ومرجع الخاص والعام، في علوم الشريعة والأحكام، ووجود هذا السيد الهمام، وأمثاله في هذا الزمان، نعمةٌ من الله عظيمة، عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها»، الخ ما قال.

وكتب سيدُنا القطب الحبيب عليُّ بن محمد الحبشي، في بعض مكاتباته لشيخنا المذكور، وصاحبُ الترجمة إذ ذاك بحضرموت، وكان إرسالُ المكتوب من طريقه: «وهذا إليكَ من طريق ولدِي، وأقوى عُدَدي، والداخل في عَددي، السيد العلامة أحمد بن أبي بكر بن سميط. قرّتْ والحمدُ لله العين بلقياه، واجتمعنا وإياه على كمال الودّ والمصافاة، نُجري جيادَ الأفهام في ميادين الفتح والإلهام، ونتناشَدُ الأخبار في مطويات الليل والنهار، تارةً نعْربُ عن البان وأهلِ البان، وتارة نصْغي إلى المعلنينَ بالأذان بالآذان، وفي الإعراب شئونٌ خفية، وفي السماعِ دواعٍ قلبية»، الخ ما قال.

وكتب الإمامُ العارف بالله، العلامة الحبيب عبيد الله بن محسن السقاف، فيما كتبَ إلى صاحب الترجمة: «إلى محبوب قلبي، ومَنْ مسكنه داخل لُبي، ومن قربه كقربي، وشربه كشربي، أعني به من طابت أخلاقُه، وعذب وفاقُه، وصحَّ إلى المعالي اشتياقُه، وثبتَ إليها سباقُه، وطال لأبكار العلوم والفهوم عناقُه، وشدّت إلى مخدراتها ولطيف إشارتها نياقُه»، إلى أخر ما قال.

وما اجتمعتُ بأحدٍ من أكابر العلويين بحضرموت إلا رأيتُه يشيد في ثنائه، ويحن إلى لقائه، فعندما اجتمعت بالحبيب شيخ بن محمد الحبشي، أخذ يتكلم في سيرة السلف وأعمالهم، ووصف من اجتمع بهم من الرجال، حتى قال: «ووالدُكَ أمثاله قليلٌ، وحضرموت محتاجةٌ إليه جَمّ، (أي: كثيراً). ومن يوم اجتمعتُ به ما أقف على معنى لطيفٍ، أو بيتِ شعر رقيقٍ إلا وأذكرُه». وعندها قال بعضُ الحاضرين، وهو الحبيب عبدالله بن أحمد السقاف: «والحبيب علي بن محمد كثيراً ما يذكره ويثني عليه، ويقول: إن أراد الله لشبام حياةً، خرج إليها أحمدُ بن أبي بكر».

وعندما اجتمعت بالحبيب عبدالله بن عيدروس العيدروس، أخذ يتكلم في وصفِ السلف ومثابرتهم على الأعمال الصالحة، حتى قال: «وأبوك نغتبط به، وحضرموت محتاجةٌ إليه، مرادنا يخرج يحوك شياذراً فيها».

وجرى ذكره عند الحبيب عمر بن عبدالله الحبشي، فقال: «هل هناك حيلةٌ تحرك عزْمَه للخروج؟ فإن حضرموت محتاجةٌ إليه جَمّ، وما يستاهل السَّواحل ذاك الحبيب، وإن نال درجات عظيمة بصبره على أهلها»، وأطال في الثناء عليه، حتى قال: «وكله رُوح، ما فيه من الكثوفات شيء».

وعندما اجتمعتُ بالحبيب عمر بن حامد السقاف، قال: «ما له كثير طلب، وإنما أكثَر علومه من طريق الفتح. والحبيب علي بن محمد كثيراً ما يذكره ويثني عليه».

وجرى ذكره عند عمِّه الحبيب طاهر بن عبدالله ابن سميط، فقال: «ما وُلِد في آل محمّد بن زين مثلُه. وعنده علومٌ ما هي عند آبائه».

ولنكتف بكلام هؤلاء الأعلام، لئلا نخرج عن الإيجاز.

[رحلته الثالثة والأخيرة إلى حضرموت]

وفي عام 1325هـ، عاد إلى حضرموت، وهي رحلته الأخيرة إلى تلك الديار، وكنتُ وأخي أبوبكر ممن انتظم في سلك صحبته، فكأنّ يومَ قدومِه في شبام عيداً من الأعياد، وخرجَ لملاقاته بالسماع الجمُّ الغفير.

ونظَم التهاني في قدومه جماعةٌ من أدباء حضرموت: منهُم الفقيه العلامة، والشاعر البليغ، السيد عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف.

قال متع الله به:

قدومٌ له في طالعِ السعْدِ إقبالُ   ووصْلٌ به تصديقُ ما زعم الفالُ
جرى سانحا طيرُ البشَارة باللقَا   وفي جَريه وحيٌ يسَرُّ به البالُ
ويمّنٌ به بنت الهديلِ لزهْوِها   تغنّي إلى أن يطرَب الشّيخُ والضالُ
تحلّتْ به الدنيا ابتهاجاً وجادَها   من الأنس مزنٌ دائمُ السكْبِ هطالُ
وألبس أهلُ الأرض أثواب سندُسٍ   من العشْبِ فهي الآن تزهو وتختالُ

نبـاتٌ وطَـلٌّ فضّـةٌ في زبرجَـدٍ   على سَاقِها من ذلك الحلْـي خَلخالُ
تفـوحُ بـه الأزهـارُ فالقَـارُ عرفُـه   يضُـوعُ أريجـاً فيـه للمِسْـك تمثـالُ[3]
ويـومٌ علـى الأعيـادِ يزهُـو لأنـه   برؤيَـة بـدرٍ فيـه للنّـاس إهـلالُ
شِهابٌ على أفـق السـعادةِ طالـعٌ   يحـفّ بـه عِـزٌّ ومجـدٌ وإجـلالُ
جمـادَى بـه أضحـت تتيـهُ وتزدَهـي   وتحسُـدها الأضْحَـى عليـه وشـوالُ
قدومُ الشهابِ الشهمِ للمجْد بهجَةٌ   وللعلـم مـن داء الجهالـة إبْـلالُ
بـه سـرّتِ الآداب مـن بعـدِ أن بـدَتْ   ومشَـرَعُها إذ قـلَّ أصحابهـا آلُ[4]
وأخْنَى عليها الجهْلُ يهصِـرُ غصْنَها   فتلـك مغَـانيها مـن البَـين أطـلالُ
تداركَها لطْـفُ الإلـه و عطـفُه   وطبقَــها سيلٌ بمــأتاهُ أدحــالُ[5]
نهنّـي بلقــياهُ العــلــومَ لأنـه   بمَفْرِقها تـاجٌ وفي خَدِّهـا خـالُ
أديبٌ أريبٌ المعــيٌّ محـقّقٌ   عـزوفٌ عفيفٌ طيبُ النفْسِ مفضالُ
رضيـعُ لبـان العلْـم طفـلاً ويافعـاً   وكهْـلاً بـه في الجـدِّ تُضـرب أمثـالُ
مشنّفُ آذانِ الطــرُوسِ[6] جـواهــراً   وليـثٌ إذا أعيـا بنـي العلْـم إشكالُ
مميـطُ لثَـامِ المشكلات إذا دجَـا   ظـلامُ جـدالٍ أو تكافـحَ أبطـالُ
بتقريـره الصعبُ الجمـوحُ مذلـلٌ   وفي فهمـه صلــدُ المســائل ينهَـالُ[7]
لـه فكـرةٌ كالنـار ترمـي شـرارهَا   ولفـظٌ إذا مـا فـاهَ كالشّـهد سيالُ

---

3. القار: شجر مر. العرف: الرائحة. يضوع: ينتشر. الأريج: توهج ريح الطيب.
4. الآل: السراب.
5. أدحال: جمع دحل، وهو المصنع يجمع الماء. وفي الأُل: دجال، وهو تصحيف.
6. الطروس: الصحائف المكتوبة.
7. الصلد: الصلب الأملس. ينهال: يسيل كالرمل.

لـه همـمٌ أمضَـى مـن السـيف سُـبّقٌ لهـنّ إلـى كشـف المفَاخِـر إرقـالُ[8]

ضوامِرُ مـا كلّتْ عن السـير والسُّـرَى لهـا في الموامـي والدّياجيـر تَصْهـالُ[9]

عشيقَ الندَى أنضيتَ في السير نحْوَنا مطيّـا لهـا مـن مـاءِ حسـنِكَ إنهـالُ[10]

وجُبْـتَ حُـزونَ الأرض والسّـهْل آتيـاً فللّــه نـوقٌ أقـدمَتْــك وأجـمــالُ

لقد حملتْ طوداً من المجدِ شـامخاً ومـا نالهــا أيـنٌ وقـد دام إيغــالُ[11]

على الطائـر الميمُونِ والسّـعد والهنَـا قدمـتَ وأصْحــابٌ كــرامٌ وأنجـالُ

فألق العصَا واشْفِ النفُوسَ من العَنا فقـــد رشَـقتْها بالتفــرّقِ أحوالُ

وقـد شـفَت العليـــاءَ ممـا أصــابها ففـي صَدْرِهـا مـن طوال نأيك أوجالُ

ولكـنّ هـذا الوفْـدَ قـد بـدّل الجـوَى حبُـوراً وبالإمـراعِ بُـدّل إمحـالُ[12]

ليهنـكَ هــذا الوصْـلُ فانعَـم برَوقـه ودُمْ في إنبسَـاطٍ لا تمسـك أهـوالُ[13]

أدمْ ربّنـــا هـــذا الوصـــالَ وأنْسَـه تمـدّ لـه مـا أسفــر الصبـح آجـالُ

فلـم تَـر عينـي مثلَـه قـطّ رائقـاً وفي أمّ ذكــرى لا يصــــوّرُه البـالُ

ولكنمـا الأقـدارُ للنـاسِ قـد جـرَتْ بسَـعد لهـم فيـه قضـاءٌ وإسْـجالُ[14]

فللـه مـن وصْـلٍ شـهيٍّ ومقْـدمٍ بـه قُضيـتْ للرّوحِ والقلْـبِ آمـالُ

---

8. الإرقال: ضرب سريع من السير.

9. السرى: السير ليلاً. الموامي: جمع موماة، وهي الفلاة. الدياجير: الظلمات. تصهال: دوي لجوفها، ومنه ناقة ذات صاهل.

10. انضيت: أهزلت. إنهال: شرب أول.

11. أين: إعياء. إيغال: إبعاد في السير.

12. الجوى: الحزن. الإمراع: الخصوبة، ضد الإمحال بمعنى الجدوبة.

13. الروق: الصفاء.

14. قضاء: قضاء مآرب. إسجال: كثرة خير.

قـدومٌ بـه الصفـراءُ جـرّت ذيولهـا   فخـاراً كمـا جرتـه هيفـاءُ مكْسَـالُ[15]

وأسـكرَها مـاءُ الوصـالِ كأنمـا   سقَتْ دوحَها المخضَرَّ صهباءُ جريالُ[16]

ودبّت شَمُولُ القـرب منهـا فنَخْلُهـا   طليحٌ ووادِيها مـن الغيـثِ مخضـالُ[17]

وقـد ضحكـتْ فيـه الزهــور لأنـه   سـقَاها مـن الوفْـدِ المبـارك سلسـالُ

فتيهـي علـى أمـنٍ مـن البُـؤس إننـي   أعدتُـكِ ولينعَـم لسكّـانك البـــالُ

ومنهم: العلامة النحريرُ، المفلِقُ الشيخ محمد بن محمد بن أحمد باكثير.

قال متع الله به:

ثغـر الزمـانِ بيُمن عـودِك أظهَـرا   بيضَ الضَّواحـك بالمسَـرّة للورَى

فشبامُ يهناهـــا قدومُـــك سـالماً   ولطالما اشتاقتْ لقُربك أعصُـرا

إن البـــلادَ بأســـرِها مشـــتاقةٌ   للقـرْبِ منـك وشـوقُها لـن ينكـرا

للّه عَـودٌ فيـه غايـاتُ المنـى   بشْـرَى فمعتـرِضُ العناية أمطَـرا

فلـكِ الهنـاءُ بمقـدَمٍ عـذْبٍ بـه   فلقَ النـوى فطوَى البسـاط وأدْبَرا

مـا كان أحلـى عَودكُم في حيـنِ مـا   زهَـت البقـاعُ ببُـردِ عيشٍ أخْضَـرا

جـاء المصيـفُ مبشّـراً بقدُومكـم   والجـوّ ليـس لـهُ حديـثٌ يفتـرى

فليهْنَ وادي حضرمَوت وصُولكم   وبلادكُـم سـبقَتْ بـه كل القـرى

15. الصفـراء: شبام. هيفـاء: ضامـرة البطـن، رقيقـة الخاصـرة. مكسـال: منعمـة، لا تـكاد تبـرح مـن مجلسـها.

16. الـدوح: جمـع دوحـة، وهـي الشـجرة العظيمـة. صهبـاء: خمـر مـن عنـب ابيـض. جريـال: سـلافة العصفـر.

17. الشمول: الخمر. طليح: عظيم. مخضال: كثير الأغصان والورق.

إنّ الزمـان لمحسِـنٌ بقدومكمْ ... بعـد البِعَـاد فواجـبٌ أن يشـكرا
الله الله وهـــو أكـــَرمُ مكــرم ... أدنَـى لنـا بـذْر العلُـوم فأسْـفَرا
مولًـى لـه بـين الأنـام فضائِلٌ ... وفواضِلٌ ولقد عـلا أعْلى الذّرَى
كسَـب العلـوم فحـاز غايتَهـا وقـد ... أضْحَى وأدرك في المعارِف جَوهَرا
ذو همَّـــةٍ وفـطــانة وصِيــانَة ... وهدايـةٍ فاحَـتْ بمسْـكٍ أذْفَـرا
أهـلاً بمـن حـــاز المكارمَ نسْبةً ... مشـهُورةً عـزاً كبـدْرٍ قـد سـرَى
ولكـم رقَـى رُتَبـاً بجـودة فهْمِـه ... وغـدت بمرقـاهُ الثريَّـا كالثـرى
يـا مرحبـاً بالمفـرَدِ العلَـم الـذي ... شـهِدتْ له بالفضْل آسـادُ الشَّـرَى
بحْـرٌ علـى التحقيـقِ إلا أنـه ... عـذْبُ المـذاق بـه يفُـوق الأبحُـرا
مـن معشَـرٍ غُـرّ كـرامٍ في العُـلا ... صـاروا لغَايـات المكارم مصْـدَرا
جُبِلوا على الإحسان والتقْوَى وقد ... ظهرُوا ظهور الشمْسِ نوراً للورى
فهـمُ الهـداة لـكُلّ سَـارٍ حائـر ... جنْـحَ الدجـى فكأنهم نـارُ القـرى
وعلومهُـمْ مشـهورةٌ وصِفاتهـم ... مأثـورةٌ في رفْعِهـا لا يُمْتـرى
يـا أيهـا القـومُ الجهابـذةُ الذيـن ... تلَـــوا بنهجـــهِمُ النبـيَّ وحيـــدرا
هنّأتكـم بقـدوم شـبلِكمُ الـذي ... قـرّتْ بـه عـينُ الأصـولِ بـلا مـرا
بالعلـمِ والأعمـــال حـــازَ مراتبـاً ... عَليـا تُبـاع لهـا النفـوسُ وتشـتَرى
أعمالُـه شـهدت لـه بفضَائـلٍ ... كمُلـت فصـار بمقتضاهـا أجـدَرا
تصنيفُـه يغنيـكَ عـن تعريفـه ... والواجِـبُ التعريـفُ لـن يتنكَّـرا

إنـي أقـولُ مخاطبـاً والسّـعي فيْ ... أهليّتـي لخطــابه قــد قَصَّــرا
لـي يـا شـهاب الدينِ فيك محبـةٌ ... سـبقَتْ وزادت والقضـاءُ بها جرى
وبقَدْر مـا يـزداد مـن قـرْبِ الفتـى ... يـزدادُ حبًـا فيْ الفـؤاد كمـا تـرى
ولطالمـا هشّـتْ لقُربِـكَ مهجتـي ... فاخلولَقـتْ فيْ الشَّـوق أن تتفَطّـرا
فدنـا المنـى بقُدومـك الأهْنَـا الذي ... نرجُـو بـه فيْ العلـم منـك الجوهَـرا
والشـيخُ عبـدالله فاضِلُنـا الـذي ... بكـمُ اقتـدى حتـى تمسَّـك بالعُـرى
فبقربِكُـمْ ووِدادِكُـمْ نـال المنَـى ... يـا فـوزَهُ فسـعَى وجـد وشـمرا
فيْ كهْفِـه يهتـز منكـم صـارمٌ ... فلـه الهنـــاءُ وحُــقَّ أن يتبختـرا
فاسـلمْ ودُم فيْ خيـر نهـج سـالكا ... متحَلّيـاً بحُلَـى الرضـى متصـدّرا
واقبَلْ مـن العبـد المحبِّ قريضَـهُ ... سَـهلاً رقيقـاً مسـتطاباً سُـكَّرا

[من مجرياته فيْ حضرموت]

وفيْ أثنـاء إقامتـه بشـبام زار نبـيّ الله هـوداً عليـه السـلام، الزيـارة المعهودة فيْ شعبان، وصحِبه مـن بنـي عمِّـه السـيدان اللـذان لا يسـمح بمثلهمـا الزمـان، محسـن بـن حسـن بـن أحمـد[18]، وعبـدالله بـن طاهـر بـن عبـدالله[19]، تغمّدهـم الله برحمتـه الواسـعة، ودخلـوا فيْ طريقهـم بلـدة بـور، واجتمـعَ صاحـب الترجمـة فيهـا بالعـارف بـالله الشـيخ حسـن ابـن عـوض بامخـدَّم ، وبـاتَ معـه فيْ مذكـراتٍ فيْ كلام القـوم إلـى أن طلـع الفجـر.

18. توفيْ سنة 4431هـ.
19. توفيْ سنة 1331هـ.

ومـن عجيـب الاتفـاق أن صاحـب الترجمـة كان مشـتغلاً في تلـك الأيـام بشـرح «لاميـة سـيدنا عبـدالله بـن علـوي الحـداد»، ومـن جملـة أبياتهـا قولـه:

مـن تَـريمَ الخيـر لا برِحتْ في أمَـان اللّه خَيـر ولـي

فلمـا خرجُـوا مـن بَـور، أخـذو معهـم - لعـدَم أمـن الطريـق - خفيـراً مـن الجنـود إلـى بعـض الحـدود الآمنـة، وعندمـا رجـع عنهـم. قـال لـه صاحـب الترجمـة: في أمـان اللّه، فقـال: خيـر ولـي. ودخلـوا عينـات، وزاروا فخـر الوجُـود الشـيخ أبابكـر بـن سـالم، ومـع العَـود دخلـوا تـريم، وسـيون، والغرفـة، والحوطـة، والحـزم، واجتمعـوا بأكابـر سـاداتها.

وكان صاحـب الترجمـة لا يحضُـر بمجلسٍ إلا صـار حلقَـة علـمٍ، لمـا يـدور فيـه مـن المذاكَـراتِ والمباحثـات العلميـة.

[اجتماعه بالحبيب احمد بن حسن العطاس في شبام]

واجتمـع بالحبيـب القطـب أحمـد بـن حسـن العطـاس في شـبام، وكان قدومُـه إليهـا ليـلاً، فبـات النـاسُ يرقبـون طلـوع الفجْـر ليصلـوا الصبـح خلفَـه، ومـا أذّن المؤذن في المسـجد بـن أحمـد حيـثُ صلاتُـه، حتـى امتـلأ بالمصلين. وكان خَطـر لصاحـب الترجمـة إذا فـرغَ الحبيـبُ أحمـد مـن الصـلاةِ أن يقـرأ عليـه الفاتحـة، فمـا زال عنـه الخاطـرُ حتـى التفتَ إليـه الحبيـب أحمـد وقـال لـه: صـلّ بنـا يـا أحمـد. فامتنـع، لكـون الحاضريـن إنمـا أتَـوا لقصـد التبـرّك بالصـلاة خلفَـه، فمـا زال يأمـره وهـو يمتنـع، حتـى قـال لـه: لـي قصْـدٌ في ذلـك. فتقـدَّمَ وصلـى بالنـاس، ولمـا فـرغ، قـال لـه الحبيـب أحمـدُ: سـمعنا فاتحتَـك، فاتحتُـك طيبـة، فاتحتُـكَ طيبـة.

[عودته من شبام إلى زنجبار]

ثم بعد ما قضَى في شبام نحو نصفَ عام، عاد إلى زنجبار فابتهجَت به الديار وأشرقت شمسُ المسرَّة في الأقطار. وفي ذلك يقول بعض الأدباء، وهو الشيخ محمدُ بن عليّ البرواني:

افترَّ ثغرُ الدهْرِ وابتهج الورَى   وغدَا بعَودِك عودُ عيشي أخضَرا

وهو مطلعُ قصيدةٍ فائقة، لم يحضرني منها غيره.

وأما صاحب الترجمة فلم يكن عوده إلى زنجبار إلا على نية أن يقطع علائقَه منها للنقلة إلى حضرموت، ولكن كان من العوائق التي حَالت بينه وبين ذلك عدمُ طاقته للبعاد الطويل عن شيخنا الشيخ عبدالله بن محمد باكثير، لما كان بينهما من المحبة القوية، والاتحاد الذي نفَى عنهما الاثنينية. فبقى في زنجبار، حتى انتقل شيخُنا المذكور إلى رحمة الله، وبعَده عظُمَت المشقةُ، وثقُلَ على صاحب الترجمة فراقُه حتى لحقه، تغمدهما الله برحمته الواسعة.

[وفاته رحمه الله]

وكانت وفاةُ صاحب الترجمة في الثالثِ عشَر من شوال سنة 1343هـ، ووفاة شيخنا الشيخ عبدالله في الرابع عشر من شعبان سنة 1343هـ، وذلك في حال غيبتي في جزيرة أنجزيجة، حيث أتى إليَّ نعيهما على لسَان البرق، وكان يوم موتهما يوماً مشهوداً، ما عُهِد في أرض السواحل مثلُه، من كثرة الزحام على جنازتيهما، والبكاء حواليهما، وكثرة الترحم عليهما حتى من غير المسلمين رحمة الله عليهما.

وحاولت حكومة زنجبار أن تشيِّعَ رسمياً على عادة أكابر الدولة، فجاءت الجنودُ واصطفت أمام داره، ولكن صدَّهم عن ذلك هجوم الجماهير المحتَشِدة هناك على الجنازة عندما خرجت من الدار، وكلّ واحدٍ منهم يجهَدُ كل الجهد في أن تكون أعوادُها فوق عنقه للتبرك بحملها. وما وصلت الجنازة إلى المسجد الجامع بمالندِي حيثُ الصلاةُ عليه، حتى امتلأ صحنُه وسطحه وعرصَاتُه والطرقُ النافذة إليه، وكثُر ازدحامُ المصلين، حتى لم يستطع أكثرهم رفع اليدين عند التكبير لتلاصق المناكبِ، وصلَّت عليه جميعُ طوائف الإسلام بزنجبار، على اختلاف مذاهبهم. وصلى إماماً بهم السيدُ الخاشع أبوبكر بن أحمد ابن شيخ بتَّة من آل الشيخ أبي بكر بن سالم. وما بقي في زنجبار ولا في ضواحيها من يستطيعُ المجيءَ للصلاة عليه إلا حضَر.

ودفن أمامَ محراب المسجِد الجامع، في بقعة بإذن مالكِها.

وبعد الدفن ازدحم الناسُ على الثوب الذي غُشِّيَ به جنازتُه، ومزقوه مزقاً، وعلقوها للتبرك على صغار أولادهم.

[المراثي التي قيلت فيه]

ورثاه بزنجبار كثير من أدبائها، منهُم الشيخ صالح بن علي الخلاسي، والأستاذ برهان بن محمد مكلاًّ القُمُري. ولم يحضرني الآن شيءٌ من مراثيهم.

ومنهم: الشيخ محمد بن علي بن خميس البرواني، رثاهُ بقصيدة مطلَعُها:

ماذا تريدُ طوارِقُ الحدثَانِ　　　بالعلمِ والإسْلامِ والإيمانِ

[مرثية الشيخ محمد باكثير]

ورثاهُ بحضرموت الشيخُ العلامة محمد بن محمد بن أحمد باكثير بهذه القصيدة:

لا تعتِبِ الأيامَ فيما قد جرَى ... فالله ماضٍ ما قضاهُ وقدَّرا
سَلم هُديت ولا تكُنْ متبرّماً ... واعكفْ على بابِ الرضَا وتصبَّرا
والموتُ غاية كل عبدٍ إنَّما الز ... لفَى لمن يطوي الحياةَ مشَمِّرا
متعبِّداً متزهِّداً متورّعاً ... متواضعاً متذَكِّرا متفكّرا
يلوي العنانَ عن الدنَايا مقبلاً ... للباقياتِ الصالحات مطهّرَا
إن الذي لزِمَ العبادة والتّقَى ... أحْرَى بأن يعطي القبُولَ مبشّرا
وأجلّ عبْد منْ حمَى الدينَ الذي ... يزكُو به المرءُ الذي ما قصّرا
وليغْنَم الإنسانُ صفْوَ حياتِه ... يتلو الكتَابَ مرتلاً متدبراً
ويعُوم في بحْر المعاني راقياً ... من ناطق الآيِ الكريمَة منْبَرا
وإذا درَى مما قرَا وسعَى إلى ... سبُلِ الرشاد وبالخمُول تسَتّرا
فهو الذي قد نالَ بالتوفيق ما ... يحوِي به السَّامي المقام الأفْخَرا
يا ويح من ركنُوا إلى الدارِ التي ... عمَرُوا بها بيت الفنَا فتدَهْورا
زعمُوا غرُوراً أن ما جمعُوا لهم ... كَلاّ وإن الموتَ يهتِفُ بالورَى
تبا لهذي الدارِ كم قد فرّقتْ ... بين الأحبة كَمْ بها دمعٌ جرَى

كم قد بكَى باكٍ بها كمْ قد شَكا ... كم قطّعتْ أكباد أهليهَا عُرى

أيـن الذيـن تملكُوا البلـدانَ والـ ... أمْصَار في الدنيا وقادوا العسْكَرا

أين الذين طغَوا وجارُوا وارتَووا ... من طيِّب الأشياء وجاءوا المنكَرا

أيـن الخيـارُ الصالحـونَ الأتقيـا ... والطّاهـرُون ومـن زكَا فتسـترا

أيـن الشيوخُ وأيـن أربـابُ النهَـى ... ذهبُـوا وكانـوا بالإقامَـة أجـدَرا

كم قـد عرفنـا مـن أسَـاتذةٍ ومـن ... إخوانِ صـدقٍ فضلهـم لـن ينكَـرا

أجلَتهُـم الأيـام مـن حُجـُراتهم ... عنَّـا إلـى دار البـلا بطـنَ الثـرى

فعيُونـنـا تبكِـي عليهـم بالدّمـا ... بعـد الدمُـوع ولا اكتحلنـا بالكرَى

والطيـبُ ابـنُ الطيبـين العارفُ ابـ ... ـن العارفينَ المستطابُ ومن درَى

جـــاء البريـدُ بمـــوتِه فكـــأنما ... متْنـا بـهِ قبـلَ الممـات كمـا تَـرى

نبـأ بـه بكـتِ العيـونُ صبابـةً ... والهـمّ خيَّـم والفـؤادُ تفطَّـرا

إنَّـا علـى أسـتاذنا نبكِـي وهَـل ... يغنـي البـكاءُ وحكمُ مولانـا جرَى

آهٍ علـى المفضَـال والحبْـر الـذي ... مـا زالَ للعلـم الشَّـريف مقـرِّرا

آهٍ علـى البَـر اللطيـفِ المرتضَـى ... وبوجهـه نـورُ السـعادة أسْـفرا

آهٍ علـى تلـك الصّفـاتِ فإنهـا ... ترقَّـى بأهليهـا إلـى أعْلـى الذرَى

يمشـي علـى النهْـجِ القـويم متابعاً ... في ذلـك النهـج النبـيِّ وحيـدَرا

آهٍ علـى المتواضِـع المتعبِّـد السـ ... ـاري إلى الخيراتِ فيمن قد سرَى

تبكي على هذا الفقيدِ مدارسٌ إذْ بالغوامضِ كان فيها أخبَرا
طلبَ العلوم ونالها وأفادَها حتى استقرَّ لطالبيهَا بيدَرا
من عنفُوان شبابِه يرقى إلى أوجِ المعارفِ فاستجادَ وشمَّرا
شهدتْ برفعتِه التصانيفُ التي كانت لمن رام الإجادَة مصْدَرا
فانظر إليها إن تكُن من أهلِها فيها الإفادةُ والسعادةُ للورى
كم بينتْ من مبهَم كَم أظهرتْ من مشكِلٍ حتى بها سرٌّ سرَى
ملأ البقاعَ بعلمِه وبنفعه حتى غدَا المشهُورَ في كل القرَى
كنا نؤمِّلُ بعد غيبتِه اللقَا نحيَى إذا ما زارنا طيفُ الكرى
حتى أتَى النبأ الذي قد هالَنا فكأنّه لرؤوسنا قرعُ الهِرَا
كبدٌ تذوبُ ولوعةٌ وكآبة ودماءُ دمعٍ لم يزلْ متحَدّرا
وتوجعٌ وتأوهٌ وتألم وتنفسُ الصعَداء من طَارٍ طرَا
يا ربِّ واجعَل دائمَ الرحمات في جدَث الفقيد ممازجاً منه الثرَى
والله يخلفُه على ساداتِنا ويضاعفُ الأسرارَ فيهم أكثَرا
ويؤيد العلمَينِ فيهم والهدى ويؤيدُ الله الجنابَ الأطهَرا
ويضاعف البركاتِ في ولدَيه والـ ـسِّرّ المصونَ المستطابَ الأفخرا
كي يبقيا نُوراً ونفعاً كاملا وهدايةً للعالمين ومظهَرا
والله يعظِمُ أجْر من رُزِئوا به سيما إذا اتبعُوا الكرامَ الصُّبّرا

وصلاةُ مولانا وتسليمُهُ على مسكِ الختام محمّدٍ خير الورى

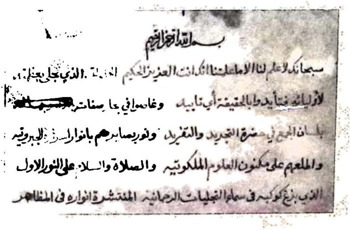
والآل والأصحاب ما دمع همَى من ذي الكآبةِ في المحاجِر أحمرا

إلى هنا انتهى ما أردتُ ذكرَه من ترجمة سيدي الوالد، رحمه الله آمين.

هذا الكتاب

توفر من هذا الشرح نسختان، واحدة تامة، وأخرى ناقصة، هذا وصفهما:

النسخة الأولى (الأصل): تقع في 37 صفحة، غير مؤرخة، ولم يسم كاتبها. وهي من محفوظات مكتبة ابن المؤلف، الحبيب عمر بن سميط في قصر المعونة بجزر القمر.



بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم ... الذي تجلى بعظمته

لأوليائه فتأيدوا بالحقيقة أي تأييد وغاصوا في بحار معارف [redacted]

بلسان الجمع في حضرة التجريد والتفريد ونور بصائرهم بأنوار الأسرار الجبروتية

والملهم على مكنون العلوم الملكوتية والصلاة والسلام على النور الأول

الذي بزغ كوكبه في سماء التجليات الرحمانية المنتشرة أنواره في المظاهر

النسخة الثانية (ب): تقع في 15 صفحة فقط، ناقصة الآخر.

منهج العمل في الكتاب

صففتُ الكتابَ على النسخة التامة (الأصل).

قمت بالمقابلة بين النسختين.

صححتُ النصَّ وأضفت علامات الترقيم.

قمتُ بتفقير النصّ.

وضعتُ عناوين جانبية للفقرات.

عزوتُ الآيات والأحاديث.

أضفتُ ترجمة المؤلف من مقدمة كتابه «الابتهاج».

أدرجتُ نصّ القصيدة المشروحة في أول الكتاب.

أضفتُ ملحقين بالكتاب:

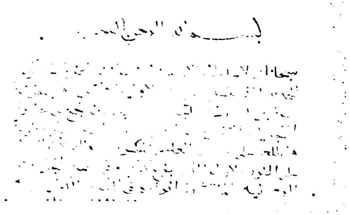
الملحق الأول: في شرح رؤيا الشيخ باكثير للمؤلف.

الثاني: تشطير قصيدة النابلسي للعلامة الجفري.

والله الموفق والمعين.

كتبه/ محمد باذيب

12 ربيع الآخر 1443هـ



لذَاتي بِذاتي لا لكُمْ أنَا ظاهِرُ وما هَذه الأكْـوانُ إلا مظَاهرُ
تقيّدتُ والإطْلاقُ وصْفِي لأنني على كُلّ شيء حينَ لا حَينَ قَادرُ
ومرتبَةَ التقْييدِ أظهَرتُ رحمةً ومرتبَة الإطلاق أني سَاترُ
وتلكَ بمخلُوقٍ وهَذي بخَالقٍ تسمَّت وفي التحقيقِ أينَ التغايرُ
وأحببتُ بالتكليفِ إظهارَ حكمَةِ الـ ـظهُور وحكْمِي ما أنَا فيه جائرُ
وصَوني لأفعَالي عن العبَثِ اقتَضى خِطَابي ومن لم يمتَثِلْ فهو كافرُ
جسُومٌ وأعراضٌ تلوحُ وتختفِي وما هيَ للمحبُوبِ إلا ستائرُ
وخلفَ حجابِ الكَون ما أنتَ طالبٌ ومن لفظَة المقهُور يلزَم قاهرُ
تأمَّلْ حروفَ الكائناتِ فإنها تشِير إلى معنًى به أنتَ حائرُ
وبرقُ الحمَى هذا الوجُودُ وميضُه ولكن بما تجنيه تعمَى البصَائرُ
فيا ظاهراً في خلقِه وهو باطنٌ ويَا باطناً في أمرِه وهو ظَاهرُ
تجليتَ لي في كُل شيءٍ ولم أكُن سِواكَ فمنظُورٌ كما أنتَ ناظرُ
وللقلبِ منّي قد ظهرتَ بكل ما ظهرتَ ولم تتكرّكَ مني الخواطرُ
بكل مليحٍ بل بكُل مليحَةٍ تراءيتَ حتى حقّقتْكَ الضّمائرُ
وما مَذهبي حبُّ المَظاهر إنّما احبُّ الذي دانَتْ عليه المظاهرُ
أما ومقَامِ البيتِ والحجَرِ الذي عهِدناهُ قد دارتْ عليه الخنَاصرُ

---

20. النابلسي، عبدالغني بن إسماعيل، ديوان الحقائق ومجموع الرقائق في صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية، (مصر: المطبعة الشرفية، 6031هـ): ص 941-741.

لأنتَ المنَى والقصْدُ يا غايةَ المنَى ... وإن لامني فيكَ القنَا والبواترُ

وما ملتُ يوماً عنك للغَير سلوةً ... وكيفَ ويا نوري معي أنتَ حاضرُ

وأنتَ رفيقي لا رفيقَ سِواك لي ... وإن أنَا عن إيفاءِ حقّك قاصرُ

أحبُّك لا بي بَل بكَ الحبّ منةً ... عليَّ كما أني بكَ الآن شاكرُ

يقولُ عَذولي لا تخاطِر بقُربِهِ ... وهل يدركُ المأمولَ إلا المخاطرُ

وإني لأدري أن طرْقَ وصَاله ... تدورُ على الأقْوام فيها الدوائرُ

ولكن له سلمتُ نفْسي فإن يردْ ... هداهَا وإن يضْلِل فما هُو جائرُ

وماذا عسَى نفسِي تعادلُ في الورى ... فمن أجْلها عن مَالكي أنا نافرُ

فررتُ به منّي إليه لأنني ... تحققْتُ أنْ لا غير والأمرُ ظاهرُ

فكانَ اضطراراً كونُ قلبي موحّداً ... له وبهِ لا بي أنَا اليوم ذاكرُ

أهيمُ بأنفاسِ النسِيم وإنني ... بطيبِ الحمَى لا بالنسَائم عاطرُ

وأُظهِرُ أني قد ظفرتُ بعلمِهِمْ ... وقلبي بذاتِ الخالِ لا العلْمِ ظافرُ

ودونكَ شرْعي إن هويتَ طريقَتي ... فإني مدَى عمْري إلى الحبِّ سائرُ

وكنْ هكَذا مثلي فَقيراً من السِّوى ... ومن نفسِه تأتيكَ منك الذخائرُ

وغبْ عنكَ وامحُ نقْطةَ الغَينِ ثابتاً ... وغُصْ في بحَار الجمع تبْدُ الجواهرُ

ولا تكُ من قَوم أماتتْ ذنُوبهم ... نفُوساً لها الأجسامُ منهم مقابرُ

فإنّ طريقَ الحقِّ سَهلٌ سلوكُه ... وأوضَحُ منه ليس يدركُ ناظرُ

وليسَ بذكرٍ أو بفكْرٍ تنالُه ... سوَى بالصَّفا والمحْوِ عما يغايرُ

وهـذا حجَابُ النفس يصعبُ خَرقُهُ   وعقلُـكَ منـه وهـو للحَـقِّ سَـاترُ
فمُتْ في الهوى تحيَ وأغمِضْ عن السِّوى   تقَـرُّ بـذاك الوجْـهِ منـك النواظـرُ
طلبْـتَ مقامـاً بـذلُ روحِـكَ شـرطُه   وأنـت علـى مـا أنْـتَ نـاهٍ وآمـرُ
ومـا هكَذا شـرطُ الهوى إن تُـرِد فَـرِدْ   فنـاءَ الفنَـا وانْـسَ الـذي أنـت ذاكرُ
ووطِّـن علـى الإنـكَارِ نفْسَـك والأذى   فمَن عسَـلاً يجني على النحْلِ صابرُ
وقـد كثُـرتْ فيـه العـواذِلُ غيـرةً   وقـلَّ لطُـــلاَّبِ الحقيقَـة ناصــرُ
فإن شئْتَ فاقدُمْ هكذا الشَّـرْطُ بيننا   وإلا فـــلا تُقْـــدِمْ لأنـك آخــرُ

شرح قصيدة
الشيخ العارف بالله عبدالغني النابلسي
التي مطلَعُها «لِذَاتي بذَاتي»

للسيد العلامة المحقّق
الحبيب أحمد بن أبي بكر بن سميط
المتوفى بزنجبار سنة 1343هـ

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العزيز الحكيم

الحمدُ لله الذي تجلى بعظَمته لأوليائه، فتأيدوا بالحقيقة أيَّ تأييد، وغاصُوا في بحار صفاته بلسَان الجمع في حضرَة التجديد والتفْريد، ونوّر بصائرهم بأسوارِ أسراره الجبروتية، وأطلعهم على مكنون العلوم الملكوتية. والصلاة والسلام على النور الأوّلِ الذي بزغ كوكبُه في سماء التجليات الرحمانية، المنتَشِرة أنواره في المظاهر الكونية، سيدِنا محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار المخصُوصِين بلبابِ المعارف والأسرار، وعلى آلهِ المبرَّئين عن دنس الأغيار.

أما بعد؛ فهذا تعليقٌ وجيزٌ على صُورة الشَّرح لمنظُومة الشيخِ العارفِ ذي المشرب القدسي، عبد الغني بن الشيخ إسماعيل النابلسيّ، أوردتُ فيه ما ظهَر لي مما انطوَتْ عليها عباراتُها، ودلتْ عليها إشاراتها، معترفينَ بالقصُور عن سلوكِ هذه المسَالك والعثُور على حقيقة ما في هذه المدارك، وهو حَسبي ونعم الوكيل.

وهذا أوانُ الشّروع في المقصُود.

[شرح البيت الأول]

قال الناظم نفعنا الله بعلومه:

لذَاتي بِذَاتي لا لكُمْ أنا ظَاهِرُ ... وما هذه الأكْوانُ إلا مظَاهِرُ

عبّر بهذا التعبير على لسَان الألوهية، إذ لا يصلحُ مثل هذا إلا من الحضرة القُدسية. ومن هذا القبيل قولُ العارف الدسُوقيّ، قدس الله سره:

وألسِنةُ الأكْوانِ إن كُنتَ واعياً   شهودٌ بتَوحيدي بحَالِ نصيحَةِ

والمعنَى: أن ذاته تعالى ليسَت ظاهرةً إلا له تعالى، فلا يعرفُ حقيقته إلا هو تعالى.

وأما معرفتُه الواجبةُ على المكلّف، فالمراد بها: معرفةُ صفَاته، وسَائر أحكامه الألوهية، لا معرفةُ ذاته وكُنْهِ حقيقته. وفي الحديث: «إن الله احتجَب عن البصَائر كما احتجبَ عن الأبصار»[21]. ولذا قال الصديقُ: العَجْز عن دركِ الإدراك إدراكُ، والبحْثُ عن ذات الله إشْراكُ.

وعلوتَ عن إدَراكِنَا   وإن أطلْنَا الاعْتِنَاءْ

فنهَايةُ المتعَمْـ   ـقينَ تحيرٌ يَا مُمْعِنا[22]

وللظهور معنيان:

[1] ظهورُ الذاتِ، بمعنى الانكشافِ التام. وهذا ممتنعٌ إلا لهُ سبحانه وتعالى، كما تقرر. واعتقادُ غير هذا ضلالٌ.

[2] وظهورٌ بمعنى التجلّي، وهذا حاصل لكلّ شيء.

وهذا هو مرادُ ابن عطاء الله بقوله: «كيف يتصَوَّر أن يحجُبه شيءٌ، وهو الذي ظهر بكل[23] شيء». قال شارحُه: «أي: تجلّى لكُل شيءٍ حتى عرفَه، ولذا كان ساجداً له، ومسبّحاً بحمده ولكن لا يفقَه ذلك».

---

21. أورده الأماسي (ت 049هـ) في «روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار»، وبعض المفسرين المتأخرين ونسبوه حديثاً نبوياً، منهم إسماعيل حقي البروسوي في «روح البيان» 54/5، والآلوسي في «روح المعاني» 852/7.؛ كما أورده الزبيدي في «شرح الإحياء».

22. البيتان للإمام عبدالله الحداد في «ديوانه».

23. كذا في النسختين، وكتب في هامش ب ما نصه: «لعله: لكل شيء، كما يفيده الشرح»، اهـ.

والحاصلُ: أن ظهورَه بغير الذاتِ، بل بتجليه على الأشياء، وظهُورِ معاني الأسماءِ والصفاتِ في الموجُودات. ومن ثَمَّ قال الناظم:

*** وما هذه الأكوانُ إلا مظاهر ***

أي: ليست هذه الأكوانُ إلا مظاهرُ الأسماء والصفات.

والمرادُ، قال شارح «الحكَم»: «فالأشياءُ كلها مجالي ومظَاهِرُ لظهور معاني أسمائه التي هي تفاصيلُ معاني صفاته، فيظهر في أهل العزة كونُه معِزًا، وفي أهل الذلة كونُه مذلاً، وفي الأحياء معنى اسمه المحيي، وعند سلب الأرواح معنى اسمه المميت، وعند العطاء معنى كونه المعطي. فلكُل اسم من أسمائه تعالى مظهرٌ في الموجودات.

[شرح البيت الثاني]

ثم قال الناظمُ، على لسان الألوهية، كما تقدم:

تقيدتُ والإطلاقُ وصْفي لأنني ... على كُلِّ شيءٍ حينَ لاحين قَادرُ

يشير بقوله: «تقيدتُ»، إلى آخره: إلى وجْهَي الاطلاق والتقييد، وهما من اصطلاحاتهم. قال في «جامع الأصول»: «وجْهُ الإطلاقِ والتقييد: هما جِهَتا اعتبارِ الذات بحسب سقُوط جميع الاعتبارات، أو بحسَب إثباتها.

فإن ذات الحق هيَ الوجود من حيثُ هو موجودٌ. فإن اعتبرتَه كُلَّ ذلكَ؛ فهو المطلَقُ، أي الحقيقةَ التي هي مع كُل شيء لا بمقارنة، فإنّ غيرَ الوجُودِ البحْتِ هو العدمُ المحضُ. فكيف يقارنه ما به موجودٌ، وبدونه معدومٌ. وغيرُ كلّ شيءٍ لا بمُزايلةٍ، فإن ما عداهُ هي الأعيانُ المعدومةُ، وهي غير الوجود. فإنْ فارقَها لم تكن شيئاً، فالكُل به موجودٌ. وهو بذاته موجودٌ. فإن قيدتَه بالتجَرُّدِ، أي بقيدِ أن لا يكُونَ معه شيءٌ، فهو الأحَدُ

الذي كان ولم يكن معه شيء. ولهذا قال المحقّقُ: والآن كما كانَ. وإن قيدتَه بقيد أن يكُون معه شيءٌ، فهو عين المقيَّد الذي هو به موجودٌ، وبدونه معدومٌ، وقد تجلى في صورته، فأضيف إليه الوجود»، انتهى.

أقول: بما تقرر هنا في وجهَي الإطلاق والتقييد، يتضحُ لكَ أن من معاني الإطلاقِ الذي هو باعتبار وجُود الذاتِ من حيثُ وجودُه؛ اتصافُه بمعاني الأسماء والصفات في الحضرة الواحدية، وفي الحضرة الأحَدية. وهي عند العارفين: الذاتُ البحْتُ، أي: الخالصةُ عن الظهُور في المظَاهِر التي هي الأكوانُ. والواحديةُ، هي: الذاتُ الظاهريةُ في الأكوان.

فقَوله: «تقيدتُ»، يشير إلى الواحدية. وقوله: «والإطلاق» الخ. يشيرُ إلى الأحدية. ويتحصل المعنى: اتصافُه تعالى بصفَاته مع وجود المظاهِر وقبلَ وجودها.

وبيان هذا المطلب: أن لله تعالى صفاتُ ذات، وصفاتُ أفعالٍ.

[1] فصفات الذاتِ أزليةٌ بالاتفاق. وهي سبعةٌ: الحياةُ، والعلمُ، والقدرةُ، والإرادةُ، والسمعُ، والبصر، والكلامُ.

[2] وأما صفاتُ الأفعالِ: كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والإنماء، وأمثالِ ذلكَ؛ ففي كونها قديمةً نزاعٌ.

فعند الحنفية: أنها قديمةٌ. وعند الأشاعرة أنها حادثةٌ متجددةٌ.

فإن الخالقَ حقيقةُ من صدَر منه الخلقُ، فلو كان قديماً لزِمَ قِدمُ الخلقِ، هذا ما يقوله الأشاعرةُ. ومع حدوثها لا محذُورَ عندهم في اتصاف الباري بها قبلَ العالم ومعه وبعده، من حيثُ رجوعُها إلى القدرة. فالخالقُ مثلاً مَن شأنُه الخلقُ، أي: بالصّفة التي يصحُّ بها الخلقُ، وهي القدرةُ.

كما يقال في الماءِ مروٍ، وهو في الكوز. أي: هو بالصفة التي يحصُل بها الإرواءُ عندَ مصادفة الباطن. وفي السيفِ في الغمدِ قاطعٌ، أي: بالصفة التي بها يحصُل القطع عند ملاقاة المحَلِّ.

والحاصِل: أنهم اختلفُوا في صفَات الأفعالِ أنها قديمةٌ، واتفقوا في أن لا محذورَ في الاتصاف بها قبل الخلق وبعْدَه. قال في «الجواهر واليواقيت»[24] عن أبي حنيفةَ: «وكما كان تعالى موصوفاً بصِفاته، أزلياً كذلكَ، لايزال أبدياً. ليس منذُ خلقَ الخلقَ استفادَ اسمَ الخالق، ولا بإحداثه البريةَ استفاد اسْمَ الباري، فله سبحَانه وتعالى معنى الربِّ ولا مربوب، وله معنى الخالق ولا مخلوق»[25]، انتهى.

وبذلكَ عللَ الناظمُ بقَوله:

* لأنني على كُلِّ شيءٍ حينَ لا حِين قَادرُ *

والكلامُ على لسان الألوهية كما تقدّم. والمعنى: ثبتَ له الوصفُ المقيّد بالمعنى المذكور، وكذا المطلقُ، حسبَما تقرّر. لأنه قادرٌ حين لا حينَ، ولا وقْتَ، ولا أوانَ، ولا مخلوقَ. فثبوتُ قيام القدرة له تعالى أزلاً وأبداً بل يقتضي أن يكون قادراً ولا مقدورَ عليه، ورازقاً لا مرزوق.

وهذا التعليلُ الذي أتى به الناظمُ مذكورٌ في «اليواقيت» في (المبحث الثالث عشر)، ونصُّ عبارته: «وكما أنه يحيي الموتَى، واستحق هذا الاسْمَ قبل إحيائهم، كذلك استحقَّ اسم الخالقِ قبل إنشائهم. وذلكَ بأنه على كل

24. في هامش ب: «قوله في «الجواهر واليواقيت»، الصواب: في «اليواقيت والجواهر»» اهـ. قلت: وهو للعلامة الشيخ عبدالوهاب الشعراني رحمه الله.

25. في هامش ب: «نص عبارة «اليواقيت» هو هذا: وكما كان تعالى بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال أبداً، ليس منذ»، الخ، اهـ، فحرره».

شـيء قديـر، تعليـلٌ وبيـانٌ لاسـتحقاق اسـم الخالـق قبـلَ المخلـوق. فأفـاد: أن معنـى الخالـقِ موجـودٌ قبـلَ الخلـقِ، وأن المـرادَ: اسـتحقاقُ اسـمه بسـبب قيـام قدرتـه عليـه. فاسـم الخالـقِ ولا مخلـوقَ في الأزلِ صحيـحٌ، لمن لـه قـدرةُ الخلـق في الأزل، هـذا مـا يقولـه الأشـاعرة»، انتهـى.

وبهذا ظهَر معنَى كلامِ الناظم.

[شرح البيت الثالث]

ثم قال مقرراً للحكمة المترتبة على مرتبة التقييد:

ومرتَبةَ التقْييدِ أظهَرتُ رحمةً ومرتبَـةَ الإطـلاقِ أنـيَ سَـاتِرُ

تقـدّم أن وجـهَ التقييـد: كونُـه تعالـى موصُوفـاً بمعانـي الأسـماء والصفـات، باعتبـار ظهُورهـا في الموجـودات في الحضْـرة الواحِديـة. وأن وجْـه الإطـلاق: كونُـه تعالـى موصوفـاً بمعانـي الأسـماء والصفـاتِ قبـل إيجـاده الأشـياءَ في الحضْـرة الأحَديـة.

فحينئذٍ ليس للموجودات إلا مرتبتانِ:

[1] مرتبة التقييد: التي هي باعتبار وجُودِ الموجودات.

[2] ومرتبة الإطلاق: التي هي باعتبار عدمها.

فأشـار الناظـم بقولـه: «أظهـرتُ رحمـةً»، إلـى أن مرتبـةَ التقييـد التـي لـزم منهـا ظهـورُ آثـار الأسـماء والصفـات؛ أظهرهـا المولـى لأجـل رحمتـه، فهـي حكمـةٌ لا غـرَضٌ. لأن أفعالـه تعالـى منزَّهـةٌ عـن الغـرَضِ. والفـرقُ بـين الغـرَضِ والحكمَـة مذكـورٌ في كلامهـم، وسـيأتي بيـانُ ذلـك في خـلالِ هـذه «النبـذة».

وقد أشار إلى كلام العارفِ النابلسي هنا سيدي العارفُ بالله عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس[26] في «شرحه على الصَّلاة المنسوبة لسيدي أحمد البدوي»، بما حاصله: أن سببَ إيجاد العالم هو الرَّحمانيةُ، التي هي عبارةٌ عن ظهُور معاني الأسْماء والصفاتِ. ومما يوضِّحُ المرادَ كلامُ ابنِ عبَّادٍ فيما يتعلقُ بهذا المقام. ونص عبارته في «شرح الحكم»: «ورحمانيتُه تعالى: كونُه رحماناً. والرحمن اسمٌ لله تعالى يقتَضي وجودَ كل شيءٍ، وهو مشتقٌ من الرحمة. والرحمةُ هنا: هي الرحمة العامةُ التي وسعَت كلَّ شيء، كما وسع علمُه كلَّ شيءٍ في قوله تعالى مُخبراً عن حملة العرش، إذ قالوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما. ولذلك دخَلت تحتَ مقتضَى اسمه الرحمنِ جميعُ أسمائه تعالى الإيجادية»، انتهى.

فقد ظهر بهذا الذي قدَّره سيدي عبدُالرحمن بن مصطفى معنى كلامِ العارفِ النابلسي قدس الله أسرارهما.

قوله:

*** ومرتبةَ الإطلاقِ اني ساترُ ***

أي: ومرتبةُ الإطلاقِ المرادُ بها الحضرةَ الأحدية، فمقتضَى اسمِه الساتِر، لأن في تلك الحضرة كانتِ الأشياءُ في حيِّز السَّتْر.

[شرح البيت الرابع]

ثم قالَ مبيناً لما لكلٍّ من المرتبتين، من حيثُ اعتبارُ كلٍّ من الحضرتين، فإن الحضرةَ الأحدية هي باعتبار الذاتِ الخالصَة عن الظهُور في المظاهر، وهي الأكوانُ. أي في حالة عدَمها، إذ قد سبقَها العدمُ، ويلحقها العدم. و الحضرةُ الواحدية هي باعتبارِ الذات الظاهرَة في الأكوانِ.

---

26. المتوفى بالقاهرة سنة 2911هـ.

فأشار إلى كلّ من الحضرَتين بقوله:

وتلـكَ بمخلُـوقٍ وهَـذي بخَالـقٍ سمَتْ وفي التحقيقِ أينَ التغايُر؟

الإشارةُ بتلكَ للحضرة الواحدية، التي سماها مرتبةَ التقييد. أي: أنها بمخلوقٍ، إذ هيَ باعتبار الذاتِ مع المظاهِر.

وقوله: «وهـذي بخالقٍ»، إشارةٌ إلى الحضرة الأحدية، التي سماها مرتبةَ الإطلاق. أي: أنها باعتبار الخالقِ، لأنها عند العارفين الذاتُ الخالصة عن الظهور في المظاهر، كما تقرَّر، مع إسقاط الأسماء والتعينات.

وقوله: «في التحقيق: أين التّغايُر؟»، الاستفهامُ هنا للإنكار، أي: لا تغاير بين الحضرتين في التحقيقِ عند العارفينَ. فإنهم لم يفرقُوا بين الحضرتَين لغلبة شهودهم الحقَّ، إذ هم لما نظَروا إلى أحدية ذاته، كما هو توحيدُ العارفينَ؛ لم يجدوا للأكوان ثبوتاً، وإنما لها ثبوتٌ بالنظر إلى الواحِدية. فكانَ نظرُهم إلى محو الآثارِ بأحدية الذات، وما سواه عدمٌ محضٌ، والحقُّ اللازم وجودُ أحديّة الله، والمكوّناتُ جميعُها عدمٌ محضٌ، ولا وجُود لها إلا من حيثُ وجُود الله تعالى. فالوجود الحقيقيُّ لله تعالى. ومن هنا تكلمَ بعضُهم على وحدة الوجُود، وهي المسماةُ عند العارفين بالمسألة الغامِضَة.

[شرح البيت السادس]

ثم قال الناظم نفعنا الله به:

وأحببتُ بالتّكليفِ إظهارَ حكمةٍ من الظّهُورِ وحكْمِي ما أنا فيه جَائرُ

هـذا البيتُ تضمَّن مسألةً أصوليةً وقع الاختلاف فيها بين الأشاعرة، وهي مسألةُ التكليف بالمحال. وأن أفعاله تعالى هل تُعلّل؟

[مسألة: التكليفُ بالمحال]

وحاصل كلامهم: أن التكليف بالمحالِ جائزٌ، كالتكليف بالإيمانِ ممن علم الله تعالى أنه لا يؤمن. فإن الله تعالى كلّف الثقلينِ بالإيمان، وقال: وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين [يوسف: 103]. فامتنع إيمانُ أكثرهم لعلمه تعالى بعدَم وقوعِه، وهذا هو التكليفُ بالمحال.

[مسألة: افعالُه تعالى هل تُعلّل؟]

وأما أفعاله تعالى فإنها معللةٌ بحكَم غايتُها تعود لنفع المكلَّفين وكمالهم، لا لنفع الله وكماله. حققَ ذلك الشهابُ ابن حجر في «شرح الأربعين» قال: «فتلك العِللُ حكَمٌ موضحةٌ لأفعاله لا أغراضَ باعثةٌ عليها، لأنه تعالى منزّهٌ عن أن يبعثه شيءٌ على شيءٍ».

فإذا تقرر ذلكَ؛ فاعلمْ أن غرضَ الناظم بهذا البيت تقريرُ ما عليه الأكثرونَ من أن أفعاله تعالى لا تخلو عن حِكَم. وفائدةُ التكليف فيما يُعلَم بعدم وقوعِه من المكلَّف: اختبارُه هل يأخُذ في المقدمات فيترتّبُ عليها الثواب، أو لا؛ فيترتّبُ عليها العقاب.

والبـاء ﴿ قولـه «بالتكليـف» سـببيةٌ، أي: واحببـتُ بسـبب التكليـف، الـذي هـو إلـزامُ مـا فيـه كلفـةٌ، إظهـار الحكمـةِ التي هـي الظهـورُ. أي: ظهـور الامتثال أو المخالفـة. فيترتـبُ علـى الأول الثـوابُ، وعلـى الثانـي العقـابُ. والفائـدةُ: حصـولُ الإذعـانِ أو عدَمُـه.

قوله:

*** وفِعْلي ما أنا فيه جَائرُ ***

الكلامُ على لسان الألوهية كما تقدم.

وحاصِلُه: أن المولـى ليسَ بجائـرٍ ﴿ أفعالـه، بـل فعلـه إمـا عـدلٌ أو فضـلٌ. قـال تعالـى: ومـا أنـا بظـلام للعبيـد [ق: 29]،لا يسـأل عمـا يفعـل وهـم يسـألون [الأنبيـاء: 23].

وغـرضُ الناظـم: تقريـرُ مـا عليه أهـلُ السـنة والجماعـة، ودفـعُ مـا يهجِسُ لبعـضِ القاصريـن. وذلـك: أن الله تعالـى هـو خالـقٌ لفعْـلِ العبـد، قـال تعالـى: والله خلقكم ومـا تعملـون [الصافـات: 96]. فهـو الموفِّـقُ لمـن أرادَ إلـى رضـاهُ، بـأن خلـقَ فيـه قـدرةً علـى الطاعـة، وخـاذلٌ لمـن أراد بُعدَه عـن الخيـر، بـأن خلـق فيـه قـدرةً علـى المعصيـة. هـذا الـذي قـرّره أهـلُ السـنة والجماعـة.

وربمـا هجـس لبعـض القاصريـنَ: أن مـن حُجّـة العبـد أن يقـول لله تعالـى: لـم تعذبنـي والـكُل فعلُـكَ؟ وهـذا مـردودٌ، بأنـه لا يتوجّـه عليـه تعالـى مـن غيـره سـؤالٌ لا يسـأل عمـا يفعـل [الأنبيـاء: 23]. وكيـف يكـونُ للعبـد حجـةٌ ولله الحجَّـة البالغـة!

فـلا يسـعنا إلا التسـليمُ المحـضُ، وأن نقـولَ معتقديـنَ: أن لا جـور ﴿ حكمـه، بـل مـا يفعلـه إمـا عـدلٌ، أو فضـلٌ.

فإن يثبْنَا فبمحْضِ الفَضْلِ وإن يعَذِّبْ فبمحْضِ العَدْلِ

[شرح البيت السابع]

ثم أشار الناظم إلى معنًى لم ينفكَّ عما تضمنه البيتُ المتقدم، فقال:

وصَوني لأفعَالي عن العبَثِ اقتَضَى خِطَابي ومن لم يَمتثِلْ فهو كَافرُ

المصدرُ مضافٌ لضمير الفاعلِ. والبيتُ تضمّنَ تعليلاً لما تقدم.

ومحطُّ الفائدةِ: قوله: «ومن لم يمتثِل»، الخ. أي: ولأجل صَونِ أفعالي عن العبث، اقتضَى خطابي بالإيمان. وفائدتُه: أن يكون من لم يمتثل به هو الكافر، كما أن من امتثلَ به هو المؤمنُ. والكلامُ هنا مبنيٌّ على أن أفعاله تعالى لا تخلُو عن حِكَمٍ، إذ الفعل الخالي عن الغرَضِ عبثٌ. والعبثُ من الحكيم محالٌ.

[الفرقُ بين الحكمَة والغرَضِ]

ثم إن المقرر في العقائد: أن أفعالَه تعالى لا تعلّلُ بالغرَضِ، بمعنى الباعث على الفعل، بحيث لولاهُ لم يفعَلْ؛ لإفضائه إلى استكمالٍ، وهو الغنيُّ عن كل شيءٍ بكماله الذي لا نهايةَ له. ومع تنزُّه أفعاله تعالى عن الغرَضِ الباعثِ، فلها حِكَمٌ جميلةٌ، وغاياتٌ جليلة. إذ لو كانت خاليةً عن ذلك لكانت عبثاً، والعبث في فعله محالٌ.

والذي لا يليق بجنابه تعالى: تعليلُ قوله بالغرَضِ الباعثِ عن[27] الفعل،

27. كذا في النسختين، وفي هامش ب: «لعله: على».

بحيث يعودُ نفعه إليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والفرقُ بين الغرضِ والحكمة: مثّلوه كمَن غرس شجرةً لأجل ثمرها، فثمرها غرضٌ باعثٌ على الغرس، وظلّها بعدُ حكمةٌ، أي: مصلحةٌ مترتبة على الفعلِ، من غير أن تكون باعثةً عليه.

فحِكَم الله تعالى بالنسبة لأفعاله وأحكامِه كالظّلِّ بالنسبة للغرْسِ.

وبالجملة؛ فأفعاله تعالى لا تخلو عن حِكَم، وقد يظهر لخواصِّ خلقه، بعضُها بإعلامه تعالى إياهم، وقد لا. ولما دلَّ الدليلُ القطعيُّ على أن المولى لم يُرِد من الكافر الإيمانَ، ومع ذلك أمره به، فغايرت إرادتُه أمرَه؛ احتيجَ إلى بيانِ وجْه الحكمة في ذلكَ، لئلا يتوهَّم أن لا فائدة في الأمْر بما يعلَمُ بعدم وقوعه.

ولذا قال الناظمُ مبيناً لهذه الحكمة على لسان الألوهية:

وصَوني لأفعَالي عن العبَثِ اقتَضَى ... خِطَابي ومن لم يَمتثِلْ فهو كَافرُ

أي: ومن لم يمتثلْ فهو كافرٌ، فحكمةُ أمرِه أو نهيه ظهورُ الامتحانِ: هل يطيع العبدُ، أو لا؟ فيظهر حينئذ من له استعدادُ القبولِ فيكون مسلماً، ومن لا فيكون كافراً. إذ الشقاوةُ والسعادةُ لابدَّ فيهما، ولا يتحققانِ إلا بالطاعة والعصيانِ بعد الأمر الإلهي.

[الفرقُ بين الإرادة والأمْر]

واعلَم أن الذي قرره علماءُ الدين من الشافعية: أنّ الإرادةَ تُباين الأمر، فليستْ عينهُ، ولا مستلزمَةً له. (1) فقد يريدُ ويأمُر؛ كإيمان من علمَ الله وقُوعَ الإيمان منهم. فإنه تعالى أراده منهم وأمرَهم. (2) وقد لا يريدُ ولا

يأمر؛ كالكُفْر من هؤلاء. فإنه تعالى لم يُردهُ منهم، ولم يأمرهم به. (3) وقد يريدُ ولا يأمر؛ كالكفر الواقِع ممن علمَ الله عدمَ إيمانهم. وكالعاصي، فإنه أرادَ ذلك ولم يأمُره. (4) وقد يأمُر ولا يريدُ، كإيمانِ هؤلاء. فإنه أمرَهُم به ولم يرده منهم. وإنما أمرَهم به مع كونه لم يرِدْهُ منهم لحكمةٍ يعلمُها سبحانه وتعالى، لا يسأل عما يفعل.

فالأقسام أربعةٌ. ومن هذا الباب قولُ ابن الفارض قدس سره العزيز:

فلا عبثٌ والخلقُ لم يخلقْ سدًى   وإن لم يكُن أفعالهم بالسّديدةِ

على سِمَة الأسماءِ تجري أمورُهم   وحكمةُ وصفِ الذات للحكم أعطَتِ

يصرِّفُهم في القبضَتين وَلا وَلا   فقبضَةُ تنعيمٍ وقبضَةُ شِقْوةِ

يريدُ: أنه لا عبثَ في الوجود، وأنه لم يخلق شيئاً لغير حكمة، وأن الحكمة الإلهيةَ اقتضت وجُود أرباب السعادة وأرباب الشقاوة وإن لم يكونوا على ما هم عليه.

ومقتضى الكمالِ ظهورُ آثار الجمال والجلالِ، والكل بمشيئة الله، وإرادتُه تعالى تتعلق بالخير والشرِّ، خلافاً للمعتزلة القائلين: بأن إرادةَ الله لا تتعلق بالشرور.

وحُكيَ أن القاضي عبد الجبار الهمدانيَّ دخل على الصاحب بن عبّاد، وعنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني، فلما رأى الأستاذَ قال: سبحان من تنزه عن الفحْشَاء. فقال الأستاذُ: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار: أرأيت أن منعَني الهدى وقضَى عليَّ بالردى، أحسن إليَّ أم أساء؟ فقال الأستاذُ: إن منعَك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يخصُّ برحمته من يشاء، انتهى.

[هل ينسَب الشرُّ إلى الله؟]

واختلف العلماءُ في جواز نسْبة فعل الشرُورِ والقبائح إليه تعالى. والراجحُ جوازُ ذلكَ في مقام التعليم، لا في غيره. وهذا الخلافُ جارٍ أيضاً في نسبة الأمُور الخسيسة لله تعالى. والأصحُّ الجوازُ في مقام التعليم، لا في غيره. فلا يجوز أن يقال: الله خالق القِردَة والخنازير، وسبحان من رزق الهدهُد، ومن دَبَّبَ الشوك؛ إن لم يكن في مقام التعليم.

ومع أن الفعلَ خيرُه وشرُّه من الله تعالى، فالأدبُ أن لا يُنسَب إليه إلا الحسَنُ، فينسب الخير لله، والشرَّ من النفسِ كسْباً، وإن كان منسوباً لله إيجاداً. قال تعالى: ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك [النساء: 79]. أي: كسباً. كما يفسره قوله تعالى: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم [الشورى: 30]. وأما قوله تعالى: قل كل من عند الله [النساء: 79]؛ فرجوعٌ للحقيقة.

[شرح البيت الثامن]

جسُومٌ وأعْـراضٌ تلوحُ وتختَفِي   وَمَا هيَ للمحبُوبِ إلا سَتائِرُ

قوله: «جسومٌ وأعراض»، الخ. والمراد بهما: العالم كله، إذ هو منحصِرٌ في الأجسام، أي: الأجرام. وفي الأعراضِ. والجسمُ: ما أخذ قدْراً من الفراغ. والعَرَضُ: ما قام بغيره، كالظلِّ، والحركة، والسكون، والألوانِ القائمة بالأجرام، والاجتماع والافتراق.

وقوله: «تلوحُ وتختفي»، صفةٌ للأعراض. أي: تظهر تارةً وتختفي أخرى، والمرادُ: أنها تتغيَّر من عدم إلى وجود، ومن وجود إلى عدم. هذه صفاتٌ لازمة للأعراض. ويستدل بذلكَ على حدوثها، وحدوث الأجرام الملازمة للأعراض، استدلالاً على وجُود الصانع الحكيم. إذ الحادثُ لابدَّ له من محدِث.

قوله: «وما هي للمحبوب»، الخ. الضّمير في قوله «وما هي» راجعٌ للجسوم والأعراض، المنحَصِر فيهما العالم. أي: ليست هي إلا ستائر، أي: حواجِبُ للمحبوبِ. ففي كتاب «جامع الأصول» ما نصه: «والستائرُ هي صُور الأكوان، لأنها مظاهر الأسماءِ الإلهية، تعرف من خلفها»، انتهى.

ولعل تسمية صُور الأكوانِ بالستائر عند الصّوفية كَونها تحجُب العَبْدَ عن الوصول إلى مقام الشهود، إذ الناسُ عند نظرِهم للأكوان لا يشهدُونَ إلا هي، دون مكوِّنها، وهو المحبوبُ الحقيقيُّ. ولذا قال: «وما هي للمحبوب إلا ستائر»، أي: ليس هذه الجسومُ والأعراض إلا ستائر، بمعنى: حاجبةٌ العبدَ عن الشّهود، فلا وصُول إليه إلا لمن لم يرَ للأكوان وجُوداً. والحجابُ إنما هو في شهُودِ الأكوان.

والى هذا أشار بعضُهم بقوله:

من أبصَر الخلق كالسّرابِ فقد ترقَّى عن الحجَابِ

[شرح البيت التاسع]

وخلفَ حِجَاب الكَون ما أنتَ طالبٌ ومن لفظَة المقهُور يلزَم قاهرُ

هـذا البيتُ معنـاه مؤكدٌ لما قبلـه. والمخاطبُ بقولـه «مـا أنت طالـب» هـو المريدُ السـالكُ طريـقَ الإعـراضِ عـن السِّوَى. أي: مـا تطلبُـه أيهـا الطالـبُ كائنٌ خلف الحجـابِ الـذي هـو الكَون. فالإضافـةُ هنا بيانيـةٌ. والمطلوبُ هنـا مطلبُ العارفين، وغايـةُ مـا يرومُونـه مـن ربّهـم تجلّيـه عليهـم بجمالـه المطلق. ولهـذا الجمـالِ جـلالٌ، هـو: احتجابُـه بتعيُّنـاتِ الأكـوان. كـذا قالـه في «جامـع أصـول الأوليـاء». قـال: «ولمـا كـان في الجـلالِ ونعُوتِـه معنـى الاحتجـابِ والعـزّة؛ لزِمَـه العلـوُّ والقهـر مـن الحضْـرة الإلهيـة»، انتهـى.

وبهـذا ظهَـر معنـى كلام الناظـم: «ومـن لفظَـة المقهـور»، الـخ. أي: ويلـزم من لفظةِ (المقهُور) وجودُ قاهـر، إذ المقهورُ لابدَّ لـه مـن قاهـر، والقهرُ لازمٌ للجَـلال. ثـم اعلـم أنّ العبـارة في مثـل هـذا مقرّبـةٌ للأفهـام، ولا يعلـمُ هـذا الجمـالُ الأسـنى إلا بالـذَّوق. والأمـورُ الذوقيـةُ لا يكشـفُها العبـارات، ودونـك مـا أشـارُوا إليـه بكلامِهـم المنظـوم:

ولـمـا تجلـى مـن أحـبُّ تكـرُماً	وأشـهَدني ذاك الجمـالَ المعظَّمـا
ترفَّـعَ لـي حتـى تيقنـتُ أننـي	أراهُ بعينـي جهـرةً لا توهّمـا
وفي كل حـال أجتَليـه ولـم يـزَلْ	على طُورِ قلبي حيث كنتُ مكَلّما
ومـا هـو في وصْـفٍ بمتّصـلٍ ولا	بمنفَصـلٍ عنـي وحاشـاهُ منهمـا
ومـا قَـدرُ مثلـي أن يحيـط بقَـدْره	وأين الثرى من رِفْعة القَدْر أينما
أشاهـدُه في صفْـوِ سـرّي فأجْتلي	جمـالاً تعالَـى عـزُّه أن يقَسَّـما
كمـا أن بـدْرَ التـمِّ يظهَـرُ وجهُـه	بصَفْو غديرٍ وهـو في أفُقِ السـما

ثم قال الناظم:

تأمّلْ حروفَ الكائناتِ فإنَّها   تشِير إلى معنًى به أنتَ حائرُ

أرشَد إلى الاستدلال على الصَّانع الحكيم بالمصنُوعات، وهي المرادُ بحروف الكائنات. من إضافة المشبَّه به للمشبّه. أي: الكائناتُ المشبَّهة بالحروف في الانتظام والانتساق. ووجهُ الشبَه: دلالةُ كلّ إلى المطلوب.

فالحروفُ دالةٌ على الألفاظِ الدالّة على المعاني. والكائناتُ دالةٌ على موجدها، إذ لابدَّ لها من مُوجِد. ففي كل جزءٍ من هذه المصنوعات دلالةٌ كامنةٌ على أن الله هو خالقُها من غير شريك ولا معين. فمن نظَر في المصنوعات العلوية كالشّمْس، والقمرِ، والسماء، وما في كُلّ منهما من النعيم والعذاب. وفي المصنوعات[28] السفلية، كالأرضين، والجبال، والأنهار، والشجر، والدواب، وبني آدم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، إلى غير ذلك. وفي اختلاف الليل والنهار، وسير الكواكب، ودوران الفلك، على ما في جمع ذلك من غاية الإحكَام، وجَودة الانتظام، من غير اختلاف في زمان ولا مكان؛ شهِد بوَحْدانيته تعالى لا شريكَ له ولا منازع.

ولله در القائل:

فواعجباً كيف يُعصَى الإلهُ   أم كيفَ يجحَدُه الجاحِدُ

ولله في كُلّ تسْكينَةٍ   وفي كُلّ تحريكَةٍ شَاهِدُ

---

28. إلى هذا الموضع تنتهي النسخة ب.

وفي كُلّ شـيءٍ لـه آيـةٌ   تـدلّ علـى أنـه الواحِدُ

وقوله:

*** تشيرُ إلى معنًى به انت حائرُ ***

أي: أن هـذه الكائنـات تشيرُ إلـى قدرتـه تعالـى التي حارتْ فيها الأفكارُ، ووقفَت عندهـا عقـولُ ذوي الأبصَـار. ومنشـأ النظَـر هـو الفكـرُ الـذي هـو تـردّدُ القلـب، والتدبُّـر لطلـب المعانـي. وهـو كمـا قيـل: كحلُ البصيـرة. قـال تعالـى: أو لـم يتفكـروا فيْ ملكـوت السـموات والأرض [الأعـراف: 185]. وقـال بعضُهـم: الفكـر مـرآةٌ تدلـكَ حسـناتكَ وسـيئاتكَ، وتدلـك علـى أن الله هـو الصانـعُ المختـار، ومـا وغيـره صائـرٌ إلـى الـزوال.

وقال بعضُهم: تفكّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلَة.

تأملْ فيْ ريـاضِ الأرضِ وانظُـر   إلـى آثَـارِ مـا صنــع المليـكُ

عيـونٌ مـن لجـينٍ شـاخِصَاتٌ   بأحْداقٍ كما الذّهـب السبيكُ

على قُضُـبِ الزبرْجَدِ شَاهداتٌ   بـأنّ الله ليـس لــه شَــريكُ

واعلـم أنّ إقامـة الدليـل مذهـبٌ شـرعي. والصـوفيْ عـدمُ إقامـة الدليـل. قـال فيْ الحكم: «متـى غـابَ حتـى يُستدَلّ عليـه، ومتـى بَعُـد حتـى تكون الآثارُ موصلـةً إليـه». قـال سـيدي إبراهيـم الخـواصُ رحمـه

الله تعالى:

لقد وضحَ الطريقُ إليك حقاً ... فمــا أحـــدٌ أرادَك يســتدلّ

وقال آخر:

لقد ظهرتَ فلا تخفَى على أحَدٍ ... إلا علـى أكمَـهٍ لا يعـرِفُ القمَرا

[شرح البيت الحادي عشر]

ثم قال الناظم:

وبرْقُ الحِمَى هـذا الوجُود وميضُه ... ولكن بمـا تجنيـه تعْمَـى البصَائـرُ

البرقُ: كنايةٌ عن ظهور الوجُود الحق.

والمـرادُ بوميضـه: إشـراقُ كل شـيء بنـور الوجُـودِ الحـق تعالـى. ويوضـحُ مـرادَ الناظـم قـولُ صاحـب «الحكـم»: «الكونُ كلـه ظلمـةٌ، وإنمـا أنـاره ظهـورُ الحقّ فيـه». أي: أن الكونَ بالنظـر إلـى ذاتـه كلُّه ظلمـةٌ. أي: عـدمٌ محضٌ، لأنه لا وجُود لـه بذاتـه. «وإنمـا أنـارَه» أي: أوجـدَه، «ظهـورُ الحـق» تعالـى «فيـه»، أي: ظهُورَ إيجـادٍ وتعريـفٍ، لا ظهـور حلـولٍ وتكييـف. بمعنـى: تجلـى عليـه بذاتـه، وقـال: كن، فيكون. وهـو قـادرٌ علـى إعدامـه في الحـالِ والاسـتقبال، فليس ثمَّ إلا مبـدِعُ الأكوان.

وقولـه: «بمـا تجنيـه تعمـى البصائـرُ». الخطـابُ لـكل مـن صلُـحَ لـه. أي: بمـا تجنيـه مـن الصفـاتِ الغيـر المرضيـة، الموجبـة لحجَـاب القلـب عـن الشـهود؛ تعْمَـى البصائـر. فـإنّ الصفـات النفسـانية سـببٌ لحجـابِ العبـد عـن النظـر إلـى الحـقّ.

ثم قال نفع الله به :

فيـا ظَاهِـراً ﴾ خلقِـه وهـو باطـنٌ   ويَـا باطِنـاً ﴾ أمـرِه وهـو ظَاهِـرُ

الخطـابُ للحضـرة المنزهَـة عـن المثـال. أي : يـا ظاهـراً وجـودُه للعقـول السليمة، بآياتـه الدالـة عليـه كالسـموات والأرض.

وقولـه: «﴾ خلقـه». أي: الظاهـر ﴾ خلقِـه. المصـدرُ هنـا بمعنـى المفعُـول. فإطلاقـه عليـه مجـازٌ، علاقتـه التعلـقُ. أي: ظاهـرٌ ﴾ مخلوقاتـه. وإنمـا كان ظاهـراً فيهـا مـن حيـثُ أن الأشـياء كلهـا مجـالٌ ومظاهـرُ لمعانـي أسـمائه. فيظهـر ﴾ أهـل العـزَّة معنـى كونـه معِـزاً، و﴾ أهـل الذلـة معنـى كونـه مـذلاً، وهكـذا.

وقولـه: «وهـو باطـن»، الـواو للحـالِ. أي: والحـالُ أنـه باطنٌ. أي: احتجـبَ عـن العيـون والأوهـام، كمـا هـو ظاهـر. أمـا ظهـورُه ﴾ كل شـيء فباعتبـار مـا ذكـر، وأمـا بطونُـه فاحتجابـه عـن العيـون. فهمـا أسـماءٌ لـه تعالـى، أعنـي الظاهِـرَ والباطـن، كلٌّ منهمـا باعتبـار.

قـال الله تعالـى: هـو الأول والآخـر والظاهـر والباطـن [الحديد: 3]. ومعنى الباطـن: المحتجـبُ عـن العيـون والأوهـام، فـلا تـدرَكُ كيفيتُـه. فهـو الظّاهِـر مـن جهـة التعريـف، الباطـنُ مـن جهـة التكييـف.

وقولـه: «ويـا باطنـاً ﴾ أمـره»، الـخ. أي: ويـا باطنـاً ﴾ كيفيتـه، فـلا تـدرك كيفيتُـه، وهـو الظاهـر مـن جهـة التعريـف. والباطـنُ مـن جهـة التكييـف.

[شرح البيت الثالث عشر]

ثم قال نفع الله به، مخاطباً للحضرة الإلهية المنزهة عن المثال والكمية:

تجليتَ لي في كُلّ شيءٍ ولم أكُنْ   سِواكَ فمنظورٌ كَما أنتَ ناظِرُ

في هذا البيت، ولم أقدر على تعبير ما يلوح لي، لقصُوري عن هذا المدارك، ولا أكتفي بالمقال من دون مساعدة الحال. غير أن الناظمَ نفع الله به بلغ مرتبةَ أهل الفناء، وتحقق له معنى الحديث القدسي: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به».

[شرح البيت الرابع عشر]

ثم قال نفع الله به:

وللقلبِ منّي قد ظهرْتَ بكُلّ ما   ظهرتَ ولم تتكرّكَ مني الخواطِرُ

أشار بهذا إلى المشاهَدة القلبية التي تحصُل لأهل الله تعالى، بسبَبِ تجليه على قلوبهم. فيشهدون تجليات الذات أو الصفات أو الأفعال، على حسب استعداد المتأهلين.

وقوله: «ولم تتكرك مني الخواطر»، أي: كيف تتكرُه الخواطر القلبيةُ وهي واردةٌ من الحق على القلب. وهذا عبدٌ فنيَتْ بشريّتُه وكونيتُه بنيران القربِ وأنوار الشهود، فلا يخطر فيه إلا الخواطرُ الإلهية. وفي الحديث: «ما وَسِعني أرضٌ ولا سماءٌ، ووسعني قلب عبدي المؤمن».

ومن هذا ظهر معنى قوله: «وللقلب»، وأنّ المتكلمَ قد بلغ هذه المرتبةَ.

[شرح البيت الخامس عشر]

ثم قال الناظم:

بـكُلّ مليـحٍ أو بكُـــلّ مليحَـــةٍ ... تراءيتَ حتى حققتْكَ الضمائرُ

الشيـخُ نفـع الله بـه نظَـر إلـى مشْـهدِ العارفـين، وهـو شـهودُ ربِّهـم أنّ كُلّ مـا يصـدر في الكـون جميـلٌ مـن حيـث صـدورُه مـن المولـى، كمـا قـال بعـضُ العارفـين علـى لســان الألوهيــة:

وحيـثُ الكـــلُّ منـي لا قبيـحٌ ... وقبحُ القبـحِ من حيثـي جميلُ

ويـرَون أن الكائنـاتِ كلهـا مـلاحٌ مـن حيث شـهودُهم أن الفاعل حقيقةً هـو الله تعالـى، وأن العبدَ محـلٌ لظُهـورِ الأفعـال، وليس لـه إلا الكسبُ.

قال بعض العارفين:

إذا مـا رأيـتَ الله للكُلّ فاعِـلاً ... رأيـتَ جميـع الكائنـاتِ ملاحَـا

وإن لـم تـرَ إلا مظاهِـرَ صُنعِـه ... حُجِبتَ فصيَّرتَ القباحَ ملاحا

وقولـه: «تراءيتَ»، الـخ. خطـابٌ للحضـرة، أي: تراءيتَ للعَـارفِ بعـين البصيـرة القلبيـة، مـن حيـثُ قيـام الأسـماء والصفـات، لا رؤيـة الـذات، فإنهـا ممتنعةٌ، تعالـى الله عـن ذلـك علـواً كبيـراً. وقـد يلـوحُ علـى قولـه «بكُل مليـح تراءيتَ» إلـى معنـى، وهـو: أن كلّ جمـالٍ في جميلٍ فإنمـا هـو وميضُ بـرقِ حمَـاكَ. فمـا حنَّ قلـبٌ إلـى جمـالِ غيـركَ، لأنـك الجمَـالُ الحقيقـيُّ.

[شرح البيت السادسَ عشر]

ثم قال نفع الله به:

وما مَذْهبِي حبُّ المَظَاهِرِ إنَّما ... أحِبُّ الذي دلّتْ عليه المَظَاهِرُ

أشار إلى أن من المحبِّينَ، كما في «شرح العارف الشبراوي»، من يحبُّ الكَون وما حواهُ، بحب الله تعالى. وإليه أشار البكريُّ بقوله:

يحبُّ مصنُوعاً بحبِّ الصانعِ ... لم يحتجِبْ بقاطعٍ ومانعِ

كذا أشَار بعضُ من قد قدَّمُوا ... من أجلِ عينٍ ألفُ عينٍ تكرمُ

ولم يرِ الشيخُ هذا المسلكَ، نظراً إلى أنّ المحبة حينئذٍ مشروكَةٌ، بل أراد قصْرَها على المحبُوب الحقيقيّ. ولذا قال:

* أحِبُّ الذي دلتْ عليه المَظَاهِرُ *

وهو المولى سبحانه وتعالى كما قيل:

وفي كُلّ شيء له آيةٌ ... تدلّ عَلى أنه الواحِدُ

[شرح البيت السادسَ عشر]

ثم قال الناظم نفع الله به:

أما ومقَامِ البيْتِ والحجَرِ الذي ... عهِدناهُ قد دارَتْ عليه الخناصِرُ

وقولـه: «أمَـا» بالفتـح والتخفيـف هنـا، حـرفُ اسـتفهامٍ بمنزلـة إلاّ، التـي هـي للتنبيـه.

وقولـه: «ومقَـام البيـتِ»، الـواو للقسـم. والمعنـى: أقسِـمُ بالبيـت العتيـق، الـخ. وجوابُ القسـم هنـا قولـه في البيـت الثانـي: «لأنـت المنـى»، الـخ.

وقولـه: «والحجـر الـذي عهدنـاه»، أي: الحجَـر الـذي بـه العهْدُ، وهـو الحجَرُ الأسـود. وهـو تلميـحٌ إلـى مـا نقـل عـن أميـر المؤمنـين رضـي الله عنـه: مـن أن الله تبـارك وتعالـى لمـا أخـذَ العهْـدَ علـى آدم وأولادِه في عالـم الـذر، وكتـب عهدهـم في كتـابٍ، ووُضِـع في الحجَـر الأسـود. فلذلـك قـال: «والحجـر الـذي عهدنـاه».

وقولـه: «قـد دارت عليـه الخناصِـرُ»، جمـعُ خنْصِـر. أي: التفّـت عليـه خناصِـرُ الطائفـينَ. وذلـك: أنّ الطائـف عنـد تقبيـل الحجَـر يضـع كفَّيـه عليـه، ويلتقـي خنصِـرُ اليمنـى بخنصِـرِ اليسـرى بالاسـتدارة عنـد وضـع الكفـين

[شرحُ البيت السابعَ عشر]

ثم قال الناظِم نفع الله به:

لأنتَ المنَى والقصْدُ يا غايةَ المنى		وإن لامَنـي فيـك القَنا والبواتِرُ

هـذا جوابُ القسَم، ولما كان للأكْوانِ محاسِنُ، وهـي محبوبـةٌ عنـد قـوم؛ نـزَّه نفسَه عن النظَر إلى الكون لئلا يتَّهَم بشـيء مـن ملابسـة السّـوى. فقـالَ: «لأنتَ المنى والقصْدُ». أي: مـا أقصدُه، إقامةً للمصدر مقـام المفعول. «يا غاية المنَى»، حقيقةً، لأن كل شـيءٍ يُرغَبُ في الكونِ فهـو أثـرُ نعمة الله، وظلٌّ وفرعٌ من أصلِ ذات الحقّ ونورِه.

وقوله:

*** وإن لامَني فيك القَنا والبَواتِرُ ***

أي: هـذا ديدنـي، وإن لا منـي في حبّك ذو القَنـا والبواتـر، حُـذفَ المضـافُ وأقيم المضـافُ إليه مقامه، وأعـرب بإعرابه، كمـا هـو مقـرّرٌ في النحـو. أي: وإن وقـع عليّ القَنـا والبواتـر من أهلها، بمبالغتهم في الملامـة، كمـا وقـع لكثيـر مـن السـلف، حيـث لـم يفْهَـم أهـلُ زمانهـم مرادَهـم، ولـم يعلمـوا مكانتهـم مـن الله، فشنّعُوا فيهم، كالحـلاج وغيـره.

[شرحُ البيت الثامنَ عشر]

ثم قال نفع الله به:

وما ملتُ يوماً عنك للغير سلوةً   وكيف ويا نُوري مَعِي أنتَ حاضِرُ

هذا خطابٌ في رقيقِ حجاب، مؤكدٌ لما تقدمَ من قوله: «لأنت المنى»، الخ. أي: لا ملتُ عنك يوماً. وقوْلُه: «كيف» استفهامٌ انكاريٌّ بمعنى النفْي. أي: لا أسلو والحالُ يا نوري مَعي أنتَ حاضِر. أي: يا نوريَ الذي بك رأيتُك، وتركت ما سواك.

وقوله: «معي أنت حاضِر»، هذا القائلُ عبدٌ تحقّقتْ له مقاماتُ القربِ، ووصل إلى مقام الشهُود والمراقبة، وتحقق له قولُه تعالى: وهو معكم أينما كنتم [الحديد: 4]، فهو حاضرٌ مع الله دائماً. أي: لا يشهَد غيره تعالى. وهو دأبُ أهل الله.

قال سيدي عمر بن الفارض رحمه الله تعالى:

ولو خطرَتْ لي في سِواكَ إرادةٌ   على خَاطري يوماً قضيتُ بردَّتي

[شرحُ البيت التاسعَ عشر]

ثم قال نفع الله به:

وأنتَ رفيقِي لا رفيْقَ سواكَ لي   وإن أنا عن إيفَاء حقِّك قاصِرُ

اعترافٌ منه بعدَم القيام بحقوق الربوبية. أي: وإن كنتُ قاصراً عن ايفاء حقكَ، فإن العبْدَ وإن بلغ الغاية والنهاية في المعرفةِ والانقطاع إلى الله تعالى، لم يَفِ بحقوقه تعالى. كما قال نبيُّه عليه السلام: «سبحانَ من لا يعلمُ قدرَه غيرُه، ولا يبلغ الواصِفونَ صفتَه». وقال تعالى: وما قدروا الله حق قدْرَه [الزمر: 67]، أي: ما عظموه حقَّ تعظِيمه.

[شرحُ البيت العشْرين]

ثم قال نفع الله به:

أحبُّكَ لا بي بَل بكَ الحبُّ منةٌ علـيَّ كمـا أنـي بِكَ الآن شَاكِرُ

بيَّن رضي الله عنه أنه أحبَّ المولى سبحانه وتعالى. أي: الحبّ الواقع من العبد، لا به. أي: لا بعمله وكسبه، بل بمولاه. كما قال: «بل بكَ»، الخ. أي: الحبُّ الواقع مني بكَ يا مولاي، فأنت الذي خلقتَني، ووفقتني لذلك منةً منكَ، فإن المحبة من أعظم مِنَن المولى على عبده، ولذا سألها نبيُّه عليه الصلاة والسلام، فقال: «اللهُمَّ إني أسألكَ حُبَّك، وحبَّ من يحبّكَ، والعملَ الذي يبلغُني حبّك»[29]. وقال تعالى لنبيه موسى عليه السلام في مقام الامتنان: وألقيت عليك محبة مني [طه: 39].

وقوله: «كما أني بكَ الآن شاكِرُ»، أي: كما أن الشكرَ مني بكَ لا بي، أي: أنتَ الذي أقدرتني على ذلكَ. والتوفيقُ للشكر نعمةٌ يجب الشكر عليها، فالتوفيق للحمْدِ والشكرِ من نعم الله على عبده.

29. أخرجه الترمذي.

[شرحُ البيت الحادي والعِشْرين]

ثم قال نفع الله به:

يقُـول عَذُولـي لا تخاطِـرْ بقُربِـه   وهـل يـدرِكُ المأمولَ إلا المخَاطِـرُ

العـذولُ: هـو اللائـمُ. أي : نهانـي العـذولُ أن لا أخاطِـر بقـرْبِ المحبـوب، لمـا في نيلـه مـن المصَائـب والمتاعـب، إذ لا تُنـال مقامـاتُ المحبِّين إلا بعـد قطْـع عقبـات النفـس. وقـد يـرادُ بالعـذول هنـا: النفس، والشـيطان، والهوى، وإبليـس. وهـنّ أعـداءُ الإنسـان التـي تصـدّه عـن منهـج الحـق.

وقولـه: «هـل يـدركُ المأمـولَ»، اسـتفهامٌ إنـكاريٌ. أي: لا يـدركُ المأمولَ إلا المخاطرُ الـذي يستسـهلُ كل صعْـبٍ في إدراكِ الأرَب. وقـد قيـل: مـن لـم يوطّنْ نفسـه علـى المـرارة لا يصِـلُ إلـى ذوق الحـلاوة. وللمتنبـي شـعرٌ في هـذا المعنـى:

تريديـنَ لقْيـانَ المعالـي رَخيصـةً   ولابـدَّ دونَ الشّـهدِ مـن إبَرِ النحْلِ

ولسيدي القطْب الحداد في هذا المعنى وأجاد:

ونبئـتُ أنّ الوصْـلَ مـن قبْـلُ نيلُـه   عِقَـابٌ سـعَى في قطعِهَـا كل فَايِـز

[شرحُ البيت الثاني والعِشْرين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

وإنـي لأدْري أنّ طُـرقَ وصَالِـه   تـدورُ علـى الأقْـوام فيهـا الدّوائـرُ

«الدوائرُ» هي: الأسواء. أي: أنّ طرُقَ وصال المحبوب تدورُ فيها الدوائر على الأقوام الطالبين للوصَال. والمراد بطرُق الوصال: أحوالُ السالكينَ، ومقاماتُ المقربين، كالصبر، والشكر، والزهد، والورع. والدوائرُ التي تدور في طرق الوصال: هي القواطعُ، من الأشغال الدنيوية، والشهوات النفسانية. فهي عائقةٌ عن بلوغ النفس غايةَ الكمال، والنفسُ تميل إليها غالباً. والخلاصُ إنما هو في مجاهَدة النفسِ، ورفضِ كلّ عائق عن حسن السلوك. وفي المجاهدة مشقةٌ شديدة، لأن النفسَ جُبلت على حبّ الشهوات، تجري في ميدان المخالفة بطبعِها، وردُّها بلجام الكفّ عن غوايتها يصعُب على كثير من الناس.

[شرحُ البيت الثالثِ والعِشْرين]

ثم قال رضي الله عنه:

الضمير في قوله «له»، للمحبُوب الحقيقي.

وهذا البيتُ تضمّن اعترافاً من الشيخ بأن الله سبحانه وتعالى بيده الأمرُ، من أرادَ له الهدى اهتدى، ومن لا فلا. قال تعالى: من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا [الكهف: 17].

وقوله: «وإن يضلل فما هو جائر». أي: وإن يضلل نفسي فما هو جائر، إذ لا ينسَبُ إليه الجورُ، ولأنّ ذلك يستحيل في حقه تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون [الأنبياء: 23]. وقد تقدمَ أن أفعاله تعالى لا تخلُو عن حكمةٍ، وإن لم تصل إليها عقولنا.

[شرحُ البيت الرابع والعِشرين]

ثم قال رضي الله عنه:

وماذا عسَى نفسي تعادِلُ في الورَى   فمن أجْلِها عن مَالكي أنا نَافرُ

تضمّن هذا البيتُ اتهامَ النفسِ وذمها، وهذا شأنُ أرباب القلوب، لأن الرضَا عن النفس أصلُ جميع الصفات المذمومة، وعدمُ الرضا عنها أصلُ الصفات المحمودة.

وهذا معنى قوله:

*** وماذا عسَى نفسي تعادِلُ في الورى ***
فهو يتهمُها بما لها من الصفات المذمومة.

وقوله: «فمن أجلها»، الخ. أي: فمن أجل النفس الأمارة بالسوء، أنا نافرٌ عن مالكي. أي: عن طاعة مالكي، ففيه حذفُ مضاف. وذلك لأن النفسَ طبعُها الميلُ لكُل لذيذة، والنفرةُ عن كل كَريه. ويوضحُ هذا المطلب ما في «شرح الرسالة» لشيخ الإسلام[30]، ونص عبارته: «فالنفسُ بطبعها تميلُ إلى الدنيا، لكونها لا تعرف حسناً غيرها، فإذا عرفَت نقصَها، وحجبها عن الخيرات؛ نفرت عنها. فالذي كان لذيذاً لها صار كريهاً، وطبعها لم يتغير، وإنما تغير ظنُّه باللذيذ والكريه. وكذلك من نظَر إلى الأعمال الصالحة، ومشقة القيام بها، يجد نفسَه نافرةً عنها، فإذا عرف ما يترتب عليها من الفوائد؛ مال إليها، وكره تركها. فالذي كان كارهاً له صار مائلاً إليه، والطبع لم يتغيّر»، انتهى بلفظه ومعناه.

30. زكريا الأنصاري (ت 629هـ).

وهذا ظاهر كلام الناظم، ولذا كان جهادُ النفسِ هو الجهادَ الأكبر، وقد عُدَّت من أعداء الإنسان، وقد أشبع الصوفية الكلام على النفس، وبينوا كيفية مجاهدة النفس، حتى تنتفي عن العبد الأخلاقُ المذمومة، ويتحلى بالصفات المحمودة.

[شرحُ البيت الخامس والعشرين]

ثم قال الناظم:

فـرَرتُ بـه منّـي إليـه لأنّنـي ... تحققْـتُ أن لا غيـرَ والأمْـر ظَاهِـرُ

الفرارُ هنا بمعنَى الذهابِ إلى ثواب الله، والهرب من عقابه، فهو كنايةٌ عن هجرانِ العبد نفسَه وشهواتِه في طلب ما عند الله.

وقوله: «به»، متعلقٌ بقوله «فررتُ». أي: الفرار بالمعنى المذكُور هو بتوفيقِه وهدايته، إذ هو الذي هداني إلى التوحيد، وخلقَ القدرة على الطاعة، ووفقني لها.

وقوله: «مني إليه»، فيه حذفُ مضافٍ. أي: فررتُ من كُلِّ ما تدعو إليه النفسُ من كل مذموم، إلى مرضات الله.

وقوله: «لأنني تحققتُ»، الخ. تعليلٌ للفرار إلى الله تعالى، وهو ترقٍّ من الأكوان إلى المكوِّن.

وقوله: «والأمر ظاهر». أي: الأمر ظاهرٌ أن لا ثَمَّ غيرُ الله، فهو الموجود أزلاً وأبداً. والموجوداتُ كلها إنما هي موجودةٌ بوجود الله تعالى، الموجِد لها، فهي عدمٌ محضٌ بالنظر إلى وجود الله الذاتي. وإلى هذا أشار بعض العارفين بقوله:

اللهَ قُلْ وذَرِ الوجُودَ وما حوَى　　　إن كُنتَ مرتاداً بلوغ كمالِ

فالكُلُّ دونَ الله إن حقَّقتَه　　　عدمٌ على التفصيلِ والإجمالِ

من لا وجُود لذاته من ذَاتِه　　　فوجُودُه لولاه عينُ محالِ

وهذا المقام هو المسمَّى بوحْدَة الوجود، ولا يدركه الشخْصُ إلا بعد الفناء في الأحدية، الذي قال فيه ابنُ مشيش: «وزج بي في بحار الأحدية»، الخ.

[شرحُ البيت السادس والعِشرين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

فكان اضْطِراري كونُ قلبي موحِّداً　　　له وبِه لا بي أنَا اليوم شَاكِرُ

قوله: «فكان اضطراري»، إلى آخره، مرتبطٌ بقوله في البيت المتقدم: «تحققت أن لا غير». والمعنى: تحققتُ أن لا إله غير الله الموجُود أزلاً وابداً، فكان قلبي موحِّداً اضطراراً. أي : ضرورةً. لأن من انتفَتْ عن قلبه الأغيار، ولم يشهد إلا الواحد القهار، صار توحيدُه اضطراراً، أي: ضرورةً، إذ هو حينئذٍ من أهل المقام الرابع من مقامات التوحيد، وهو الذي تسميه الصوفيةُ: بمقام الفناء. ومن كان من أهل هذا المقام؛ كان توحيدُه اضطراراً.

وتوضيحه: أن للتوحيد أربعَ مراتب:

المرتبة الأولى: أن يقول الإنسانُ (لا إله إلا الله) بلسانِه، وقلبُه غافل عنه. أي: عن معناها المقصُود. الثانيةُ: أن يصدقَ بمعنى اللفظ قلبُه، كما يصدق عمومُ المسلمينَ، وهو اعتقاد العوام. والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريقِ الكشف عن المعايَنة، بواسطة نور الحق في قلبه، وهو مقام

المقربين. وذلكَ: بأن يرى أشياءَ كثيرةً مختلفة الأنواع والأجناس، ولكن يراها على كثرتها صادرةً من الواحد القهار.

والرابعة : أن لا يرى في الوجُود في سائر مراتبه إلا واحداً، وهي مشاهدةُ الصديقين، وهو مقام الفناء في التوحيد، عن النفس وعن الخلق، يزول إحساسُه عن نفسه. ذكر هذا حجة الإسلام في «الإحياء»، وقال في هذا المقام: «إنه الغايةُ القصوى، وليس بعد هذا مقامٌ للسالكِ ينتهي إليه».

ولا يخفى أن قولَ الناظم: «فكان اضطراراً»، إلى آخره. يدل على حُسْن سابقيته، وعناية الله به، وأنه من أهل التوحيد الخالص.

وقوله: «وبه لابي أنا اليوم شاكر». أي: فأنا اليوم شاكرٌ لله تعالى على ذلك. أو المعنى: وكان شكري له به لا بي، لأنه جعلني موحداً قبلَ وجود معاني توحيدي. ثم وفقني وألهمني طرائق التوحيد، من الإسلام، والأحكام، والإيمان، والإحسان، والأخلاق الكريمة.

[شرحُ البيت السابعِ والعِشْرين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

أهيمُ بأنفاسِ النسِيم وإنّني بطيبِ الحمَى لا بالنسَائم عاطِرُ

بيَّن أن هيامه بهبُوب النسيمِ. المرادُ به هنا: العلومُ الإلهية، والمعارف الربانية.

وقوله: «وإنني بطيب الحمى»، الخ. الواو للحالِ، أي: والحالُ أني عاطرٌ بطيبِ الحمَى، لا بالنسائم. والمراد بالحمَى: الحضرة الجامعة لمعاني الأسماء والصفات.

وحاصل المعنى: أن هيامَه بالعلوم الربانية، وهي الحقيقةُ. فهي التي هام بها عشقاً لها في تطلبها، ومع ذلكَ فهو عاطرٌ بطيب الحمى. والمراد بهذا الطيبِ: هو الوصف.

[شرحُ البيت الثامن والعِشْرين]

ومن ثم قال الناظم:

وأظهِرُ أنّي قد ظفِرتُ بعلمِهِمْ ... وقلبي بذاتِ الخال لا العلْمِ ظَافِرُ

أي: أظهر لغيري أني ظفِرتُ بعلمهم. أي: بعلم علماء الظاهر.

وقوله: «وقلبي بذات الخال»، الخ. الواو للحال، أي: والحالُ [أنّ] قلبي ظافرٌ بذات الخالِ، لا بالعلم الذي أظهرَه، وهو علمُ علماء الظاهر.

و«الخال»: هو الثوب الناعم، ويطلق على نكتة سوداء في الوجه، يضرب إلى السواد. يقالُ: امرأةٌ ذات خالٍ، أي: ثوب ناعم. أو: بثرة سوداء.

وكنّى بذات الخال عن أعلى مراتب العلم، أي: والحالُ قد ظفرت بأعلى مراتبِ العلم وهو حق اليقين، ولبّ العلم الذي ابتهجت به قلوبُ الأولياء العارفين. وهو ما يرد إليها من جهة العوالم الروحانية، والعجائب الملكوتية. وهذا مقامٌ لا يناله إلا أهلُ التمكين، وأرباب الكمال، ومن انتهى إليه شاهد الأسرارِ الغيبية، من الحضرة الإلهية.

وهو الذي عناه سيدي القطبُ الحدّاد بقوله:

فإن انتهيتُ إلى الذي عرفتَه ... شاهدتَ من عرْشٍ إلى بهَمُوتِ

ورأيتَ سراً لم يجز إفشاءَه		أهلُ الهدى والكشفِ والتّثبيتِ

إلى أن قال:

إنّا لنعلمُه ولم نحظَ بِه		ذَوقاً لما معنى من التشْتيتِ

[شرحُ البيت التاسع والعِشْرين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

ودونك شَرْعي إن هَويتَ طريقَتي		فإني مدَى عُمْري إلى الحبِّ سَائِرُ

أي: خُذ طريقتي وتمسّكْ بها، إن هويت طريقتي التي أنا عليها. وقد بينها بقوله: «فإني مدى عمري»، الخ. وما هي إلا المحبّةُ، فهي طريقة العارفينَ، أهل العناية والتمكين، لأنها أصلُ المقامات التي منها أظهر الوجُود، كما ورد في بعض الكتب الإلهية: «كنتُ كنزاً مخفياً لم أعرف، فأحببتُ أن أعرف، فخلقتُ الخلقَ وتعرفت إليهم، فبي عرفوني». والمحبة دينُ أهل الله.

ولسلطان العاشقين ابن الفارض:

وعن مذهبي في الحبِّ ما لي مذهبٌ		وإن ملتُ يوماً عنه فارَقْتُ مِلّتي

[شرحُ البيت الثلاثين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

وكُن هكَذا مثلي فقيراً عن السِّوَى		عن نفسِه تأتيكَ منْكَ الذّخائِرُ

الخطابُ لمن يريد بلوغَ المرام، والوصولَ إلى هذا المقام. أي: إذًا أردت الوصول إلى ما وصلْتَ إليه فكن فقيراً من السِّوى. و«السِّوَى»: الغَيرُ. وهو عند العارفين عبارةٌ عن كُلِّ ما يشغل عن عبادة الله. ورفضُه واجبٌ عند القوم.

فالفقيرُ عن السِّوى هو الذي انتفَى حبُّ السِّوى عن قلبه، فلا قَدْرَ له عنده، لأنه صار عادماً له، كالفقير العادِم للمال. فكما أنّ الفقير لا يُطْغيه المالُ لخلوِّ يده عنه، فكذا الفقيرُ من السوى، لا يتعلق قلبه بشيءٍ من السوى، لتخليه عن كل شاغل عن الله تعالى. فلا يرى إلا بالله، ولا يبصر إلا بالله. وهذا مقامُ أهل الفناءِ الذين طَهُرتْ نفوسُهم عن رجس الحظوظِ والميل إلى الشهوات، وصرَفُوا نفوسهم عن كل شاغلٍ عن الله.

وفيهم قال القائل:

ورفضُ السِّوَى فرضٌ على القوم رفضُه ... وكلّ كمالٍ باتبَاع الفريضَةِ

ولسيدي القطب الحداد في الحثِّ على تفريغِ القلبِ عن الشواغل:

وتطهيرهُ سبْعاً عن الميلِ للسِّوَى ... بماءِ الفنَا بالله عنهُ وغَيبةِ

وقوله: «ومن نفسه»، الخ. معطوفٌ على قوله «فقيراً عن السوى»، بإعادة الخافضِ. أي: وكن هكذا فقيراً عن السِّوى، وعن نفسه، أي: نفس الفقير.

وفقدُ النفس هو محْو كونها عرفت أو هذبت، حتى يمتَحي عنها كلّ حَظّ نفساني وبشري، فلا يبقى فيها إلا معدنُ التوحيد الخالص، والافتقارُ المحْض، وفناها في مكونها الحكيم الخبير.

وقوله: «تأتيكَ منك الذخائر»، جوابُ الأمر. وهو قوله «هكذا»، بإشباع الياء للوزن. أي: وإن كنت مثلي فقيراً، الخ. تأتيك الذخائر من نفسِكَ. فالفقرُ المذكور هو سببٌ لإتيانِ الذخائر لكَ من نفسِك. وإنما كانت الذخائر تأتي للشخْصِ من نفسه؛ لأن ذلك من فعله وكسبه، وإن كانت أفعالُه مخلوقةً لله تعالى. إذ الفعلُ ينسب إلى الشخْصِ كسباً، والإنسان هو في نفسِه لا يأتيه شيءٌ إلا من نفسِه، كما قال تعالى: من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه [الإسراء: 15].

[شرحُ البيت الحادي والثّلاثين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

وغبْ عنكَ وامحُ نقطةَ الغينِ ثابتاً وغُصْ في بحَار الجمعِ تبدُو الجواهِرُ

أي: وغِبْ عن نفسكَ. وهو إشارةٌ إلى مقام الغيبة المعرُوف عند القوم. وهو أن يغيبَ القلبُ عن إحساسه بنفسه وغيره، بواردٍ يريد عليه، من تذكّر ثواب، أو تفكّر عقاب، أو شوقٍ لمحبوب، فيستغرق قلبه فيه حتى لا يلتفتَ لما سواه، ولا يحس بمن حضرَه، ولا يكون ذلك إلا للقلبِ المقدَّس عن رجس البشرية.

وقوله: «وامح نقطة الغين ثابتاً»، المحْو في اصطلاحهم: رفعُ أوصاف العبد. ومحصّله: تبديلُ الذميم من الأخلاق بالجميل منها، بحسب ما تقتضيه رعاية المتابعة للطريقة المحمدية، والسنة المصطفوية.

وقوله:

*** وغُصْ في بحَار الجمعِ تبدُو الجواهِرُ ***

أي: وغُصْ فيها؛ تظهَرْ لك الجواهر، لأن من طلب الجواهِر غاص البحار.

والمراد بـ«بحار الجمع»: هو مقامُ الجمع المعرُوف عند الصوفية، ولهم مقام آخَرُ يسمّى مقام جمع الجمع، أعلى من الجمع. فالجمعُ: شهودُ الأشياء بالله، والتبري من الحولِ والقوة إلا بالله، وجمع الجمع: الاستهلاكُ بالكلية، والفناء عما سوى الله. ويعبَّر عن هذا المقام بتجْريد التوحيد. ويقال لصَاحبه: هو في مقام الفناء، قاله الشيخُ الصَّاوي في كتابه المسمّى «بالأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية»[31].

وقد تكلمَ على هذا المقام غيرُ واحدٍ، فلنمسكْ عنَان القلم عن كلامهِم فيه، إذ القصدُ هنا الإشارةُ إلى معاني الأبيات.

[شرحُ البيت الثاني والثَّلاثين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

ولا تكُ من قَومٍ أماتَتْ ذنوبُهم نفُوساً لها الأجْرامُ منهَا مقَابِرُ

أي: لا تكن من القَوم الذين أماتتهم ذنوبُهم حالَ كونهم نفُوساً، الأجرام من تلك النفوسِ مقابرٌ لها، أي: شبيهةٌ أجرامهُم بمقَابر لتلك النفُوس التي هي كالموتِ لجهلها، فإن الجاهلَ الموتى بمنزلة الميت، والعالم بمنزلة الحي. قال تعالى: أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس [الأنعام: 122].

---

31. توفي الشيخ أحمد الصاوي في المدينة المنورة سنة 1421هـ، وكتابه هذا شرح على صلوات لشيخه العلامة أحمد الدردير رحمه الله، طبع قديماً.

وقد سبق المصنفَ إلى هذا المعنى بعضُهم، فقال:

وفي الجهْلِ قبلَ الموت موتٌ لأهلِه فأجسـامُهم قبـلَ القبُـور قبـورُ

ولبعضهم في هذا المعنى ايضاً :

مـا الفخـرُ إلا لأهـلِ العلْـمِ إنَّهـم على الهـدَى لمـن اسـتهدَى أدلاءُ
ووزْنُ كلِّ امـرئٍ مـا كان يحسِـنُه والجاهلـونَ لأهْـل العلـم أعـدَاءُ
ففُـزْ بعلـمٍ ولا تجهَـلْ مواضِعـهُ فالنـاسُ موتـى وأهـلُ العلم أحياءُ

[شرحُ البيت الثالث والثَّلاثين]
ثم قال الناظم نفع الله به:

فـإنّ طريقَ القـومِ سَهلٌ سلوكُه وأوضَحُ منه ليس يدرِكُ ناظِرُ

أي: أن طريـق القـوم سـهلٌ سـلوكُه لمريدٍ صـادقٍ، ومنـه مـا ليـسَ بواضـح، ومنـه مـا هـو واضـحٌ. وأوضَـحُ مـا كان منـه لا يدركـه ناظـرٌ، ممـن ليـس لـه سـلوكٌ ولا رسـوخ في موضـعِ التحقيـق في علـم التصـوف، كالفقهـاء، فإنهـم يعجـزونَ عـن إدراك غوامـض هـذا العلـم. وهـو مراتـبٌ، بحسـب أهلـه. لأن هـذا العلمَ هـو علمُ الوراثـة، المشـار إليـه بخبـر: «مـن عمـل بمـا علـم، أورثـه اللّه علْـم مـا لـم يعلَـمْ»[32].

32. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث أنس، وضعفه، قاله العراقي في «تخريج الإحياء».

[شرحُ البيت الرابع والثَّلاثين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

وليسَ بذكْرٍ أو بفكْرٍ تنالُـه ... سِوَى بالصَّفا والمحْوِ عما يغايِرُ

أي: لا تدركُ أنتَ هذا العلمَ بالفكر، ولا بذكرٍ لم يعضِدهُ الإكبابُ على العملِ، والإعراض عن العلل. ولذا قال: «سوَى بالصفا»، الخ. لقول العارف الشّعراني في صفاته: «علمُ التصوف عبارةٌ عن علم انقدَح في قلوب الأولياء حين استنارت بالكتاب والسنة، فكلّ من عمل بهما انقدحَ له من ذلك علومٌ وأسرارٌ وحقائقُ تعجَز الألسن عنها»، انتهى.

ولذا قال بعضُهم:

علمُ التصَوفِ علمٌ ليسَ يدركُه ... إلا أخُو فطنَةٍ بالحقِّ معروفُ

وكيف يعرِفُه من ليسَ يشهَدُه ... وكيف يشهدُ ضوءَ الشمْسِ مكفوفُ

وقال في «الفتوحات» في (الباب الثالث والسبعين): «اعلَم أنه ما ثَمَّ دليلٌ يردّ طريقَ القوم، ولا قادحٌ يقدحُ فيها شرعاً ولا عقلاً، وإنما يردّها من ردّها بالجهل بها. فإنّ طريق القوم لا تنالُ بالنظر الفكري، ولا بضرورات العقول، وإنما هو نور في القلبِ يحدُث فيه بواسطة اتباع الكتاب والسنة، فيدرك الأمور يقيناً، لا ظناً وتخميناً».

[شرحُ البيت الخامس والثلاثين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

وهذا حِجابُ النفْسِ يصعُب فرْقُه وعقلكَ منه وهو للحَقِّ سَاترُ

قوله: «وهذا»، يشير إلى قوله «عما يغاير». أي: يخالف الطريقة المرضيَّةَ من كلِّ مذموم. هو حجابُ النفس الذي يحجبُها عن إدراك الحقائق، فتصير النفس حينئذ حجاباً، لما لها حينئذٍ من الصفات، لأنها من أقوى الحجُبِ بين العبد وربِّه من حيثُ صفاتُها المذمومة، لا من ذاتها. فإنها إذا تحلت بالصفات المحمُودة؛ تترقى إلى المقاماتِ إلى أن تصير مطمئنةً، راجعة إلى ربها. وحينئذ لا يتم للمرءِ زوالُ الحجاب إلا بمعرفَة قدر النفس، ومعرفة ما خُلقتْ له، حتى يقوى على خلاف عادتها.

وقول الناظم: «يصعُب فرقه». أي: يصعُب فرْقُ حجاب النفس، بمعنى مفارقة ذلك الحجاب، يصعب على الكثير إلا بعضِ أهل العنايات، لأن حقيقةَ الحجاب هوى النفس، وهو ثابتٌ بمقتضى داعيتها، فهو داءٌ عضالٌ لازم لها ملازمة الأوصافِ لموصوفاتها، فلا تسمحُ به إلا بعدَ جهد جهيد.

وقوله: «وعقلك منه». عقل، هنا: مصدرُ عقَل الشيء يعقِلهُ عقلاً، بمعنى شدَّهُ. وحاصله: أنه شبه ذا الحجَابِ بالمعقول، كما تُعقَل النوقُ فلا تستطيع السير. والمصدرُ حينئذ مضافٌ للمفعول. أي: والعقلُ الواقع فيكَ حتى كأنك بعيرٌ معقولٌ لا تستطيع النهوضَ، كائناً منه، أي من الحجاب.

وقوله: «وهو الحق»، الخ. أي: والحجابُ ساترٌ للحق، وهذا ظاهر.

ثم قال الناظم نفع الله به:

فمُتْ في الهوَى تحيَ وأغمِضْ عن السِّوى ... تقَرُّ بذاك الوجْهِ منكَ النّواظِرُ

أي: مُتْ في الهوى لتحيَى. والمراد بالهوَى هنا: المحبة الإلهية التي توجب الإقبال إلى المحبُوب، ورفض ما سواه. و«تحي» جوابُ الأمر، لكن أشبعت فيه الياء. أي: كُن فانياً في هوَى المحبوبِ الحقيقي؛ تحيَ حياةَ السعداء.

وقال بعضهم في هذا المعنى:

موتُ النفوسِ حياتُها ... من رامَ أن يحيَى يمُوتْ

وفيه إشارة إلى قوله: «موتوا قبل أن تموتوا»[33].

ومما لا خفاءَ أن المحبةَ الإلهية هي التي حرّضت النفُوسَ على القتال، حتى قتلت في سبيلِ الله، فنالت بعد ذلك الحياةَ الدائمة الطيبة. قال تعالى: ﴿لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: 169]. فمن سلك مسلكَ الهوى الإلهيِّ فقد التحَق بهؤلاء السعداء، وفاز بسعادة الدارين. إذ الهوى المقبولُ من أسباب الوصول.

وقوله: «واغمض عن السوى»، كنايةٌ عن ترك النظَر إلى ما سوى الله.

وذكرتُ، والشيءُ بالشيء يذكَر، حالَ تعليقي هذا الشرْحَ اللطيفَ، قول

---

33. أخرجه ابن ماجه بلفظ: «يا أيها الناس توبوا قبل أن تموتوا». أما باللفظ الذي أورده المؤلف، فقد قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» نقلا عن الحافظ ابن حجر: إنه غير ثابت. وفي «كشف الخفاء» للعجلوني (2/ 192): «قال القاري: هو من كلام الصوفية، والمعنى موتوا اختيارا بترك الشهوات قبل أن تموتوا اضطرارا بالموت الحقيقي».

سيدي العارف بالله والدال عليه، عليّ بن محمد بن حسين الحبشي[34]، في قصائده التي امتدح بها الرسول:

عرفتُ له وداً تمكَّنَ في الحشَا فيا مُهجَتي إياكِ من نظرةِ الكَونِ

[شرحُ البيت السابع والثّلاثين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

طلبتَ مقاماً بذلُ روحِكَ شرطُه وأنتَ على ما أنتَ ناهٍ وآمِرُ

وهذا خطابٌ لأهل الأماني، الطالبين بلوغ منتهى المقامات في هذه الطريقة، وهم على ما هم عليه من المألوفات والعوائد، والتباطؤ عن محامد الصفات. وهذا استبعادٌ من الناظم بنَيل تلك المقاماتِ لمن لم يبذُل نفسه لله في طلب ما عنده من الحسنات.

قال شهاب الدين السهرَوَرْديُّ:

الشرطُ بذلُ النفسِ أولَ حبِّها لا تطمعَنْ ببقائها الأشباحُ

والمرادُ ببذل الروح: الفناءُ المحض في المحبوب، ورفض ما سواه. وقد يلوحُ للمتأمل أن البذلَ في قوله: «بذل رُوحِك»، الخ. بمعنى: الابتذال. والمعنى حينئذٍ وجيهٌ، بشَاهد قول الجنيد: «طريقتُنا هذه لا تصلحُ إلا لأناسٍ كُنسَتْ بأرواحهم المزابل».

34. المتوفى سنة 3331هـ، وهو من شيوخ المؤلف، رحمهم الله.

[شرحُ البيت الثامن والثّلاثين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

وما هكَذا شـرطُ الهوَى إن تـرِدْ نردْ ... فناه الفنا وأنْس الذي أنتَ ذاكرُ

أي: ليس هـذا الـذي أنتَ عليـه، مـن الاقبـال بكليتكَ، والركون إلـى الأكوان، من شـرْطِ الهوى. لأنّ شـرطَه وصدقَه: أن يفنى صاحبهُ في المحبوب، ويرفض مـا سـواهُ. وبذلـك يرقـى إلـى أعلـى المقامـاتِ، وينتهـي إلى أقصَـى الغايات.

قال سيدي العيدروسُ:

مـا رقَـى العشـاقُ فيمـا قـد رقَوا ... غير خلّوا ما سِوَى المحبوبْ سُـدَى

ولسلطان العاشقين ابن الفارض رحمه الله تعالى:

*** فلم تَهوِني ما لم تكُن فيَّ فانيا ***

قولـه: «فـردْ»، الـخ. هـو أمرٌ مـن ورَد، أي: إن تُـرد الهوى، فكن وارداً فِنـاءَ الفَنـاء. أي: فكُن واصِـلاً مقـام فنـاء الفنـاء. وهـذا المقامُ منتهـى سير السـالك، وذلـك: أن للقـوم في اصطلاحهـم مقامـاً يسـمى بالفنـاء الأول، ومقَامـاً يسـمى بالفنـاء الثانـي، ويسـمى فنـاء الفنـاء. وكلّ ذلـك مـن نتائـج الذكـرِ المأخـوذ مـن المشـايخ، مـع مراعـات الآداب المعروفـة، والشـروط، وقطـع العلائـق الباطنيـة والظاهريـة.

أمـا الفنـاء الأول: فهـو أن يفنـى عـن عالـم الشـهادة، وهـو عالـم الملـك، إذا أقبَـل بكُلّيتـه علـى الذكـر، ويغيـب عـن عالـم الملـك لدخُولـه في غيـوب عالـم

الملكوت، فتصير الشهادةُ عن عالمها غائباً عنه، وعالم الغيوبِ التي هو عالم الملكوت شهادةً له، أي: معايناً له، يراه بعين بصيرته.

فعالم الملك ما يُرى بعين البصر، وعالم الملكُوتِ ما يرى بعين البصيرة.

فإذا كان بهذا الوصف، تحقق له مقام الفناء الأول.

فإذا ساعدته العنايةُ، وجَدَّ ولم يفتُر عن ذكره، جاوز عالم الملكوت، ودخل في عالم الجبروت، وهو أعلى من عالم الملكوت، لأنه مأخوذ من الجبر، وهو القهرُ. لأن العبادَ مقهورين عن إدراك كنهه، ما عدا أهل الصفْوة والاجتباء. وهو عند أبي طالب المكي: عالم العظمَة، لظهور عظمة الله فيها أكثر من ظهورها في غيرها. يريد به: عالم الأسماء والصفات الإلهية. وعند الأكثرين: عالم البرزخ.

فإذا ساعدت هذا العبدَ العنايةُ، واستمرَّ في سلوكه، ملازماً على إقباله؛ دخل في حضْرَة اللاهوت. وهو عالم السرِّ، أي: سِرّ الألوهية. وهذا هو كمال الفنَاء الثاني. فيفنى حينئذٍ عن الخلق، ويفنى عن فنائه. وهذا معنى قوله: «وانسَ الذي أنت ذاكره».

وفي هذا المعنى قال في «الفصوص»:

الذكر تركُ الذكْرِ عند فنَاءِ الفنَا مِن دَهْشَةٍ فيها الموحِّدُ حَائرُ

[شرحُ البيت التاسع والثلاثين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

ووَطِّنْ على الإنكَارِ نفْسَك والأذَى فمَنْ عسَلاً يجْني على النحْلِ صَابِرُ

أي: وطّن نفسك على انكارها، بأن تتهمها دائماً. إذ هي كما عُلمَ من أعظم الحجُب المانعة عن درجة المقرّبين. فهي من هذه الاعتبارات رجْسٌ، أي: رجسٌ وحبسٌ وأيّ حبْس. فالموقفُ هو العالم العاملُ، يشاهد العلمَ حتى يخالف ميلها، وبذلك يصل إلى أعلى المقامات، وسنيِّ المشاهدات. واعلم أن أكثرَ ما يدخُل به الشيطانُ على أهل الخير، الرضَا عن النفس. وهو أصلُ كل معصية.

وقوله: «فمَن عسلاً يجنى»، الخ. هذا كالمثل السائر.

وقوله: «والأذى»، أي ووطّنْ نفسَك أيضاً على الأذَى، بأن تتحمل الأذى في مراضي الله تعالى، وتتحمل المشاقَّ في مخالفتها، لأن من أراد جنَى النحل والعسل فهو صابرٌ، أي: يصبر على إبَر النحل. فمن لم يوطّنْ نفسه على المداراة لا يصلُ إلى ذوقِ الحلاوة. وقد نطق بذلك المتنبي حيثُ قال:

تريدينَ لُقيانَ المعَالي رخيصةً ولابدَّ دون الشهْدِ من إبَر النحْلِ

فكذلك من لم يوطنْ نفسه على أذاها، بمخالفتها دائماً، والقيام بوظائف العبودية، لا ينال السعادة.

ثم قال الناظم نفع الله به:

وقَـدْ كثُـرَتْ فيـه العـواذِلُ غيـرةً وقَـلَّ لطُـلاّبِ الحقيقـة نَاصِـرُ

الضميرُ لمن اختصّه بمحبته من أولياء الله، وهذا وإن لم يذكر صريحاً في كلام الناظم، لكن عُلِم من سياق كلامه، إذ لا يتبادر الضّمير في هذا المقام إلا إلى الولي، إذ هو الذي يغار الحقُّ من أن يظهره إلى من لا يعرفه. أي: أن الله تعالى غَار على أحبابه بكثرة العواذل، وهم المنكرونَ واللائمُون و المؤذونَ.

والحكمة في ذلك: أن لا يبتذَلوا بين الناس، ويمتهنوا ويؤذوا. فإنه تعالى لو أظهرهم للعامّة سوى الخاصَّة، لما فارقوهم طرفة عينٍ إلا بالموت. وهذا من رحمة الله بأوليائه، وغَيرتِه على السرِّ المودَع فيهِم. ولأنهم إذا عرَفهم من ليس عنده تلكَ الخصوصية من أهل المراتب، والمناصبِ، والاسم، والجاه؛ ربّما وصل إلى قتلهم، وتطريدهم، وتعذيبهم، أو عبادتهم، والاعتقاد المذمُوم فيهم، من دعوى التأثير في الأكوانِ، أو الألوهية. كما نسبوا نبيَّ الله عيسى عليه السلام إلى النبوّة، وثالث الثلاثة.

فلا يعرف الوليَّ إلا الوليُّ، وقد قيلَ: معرفة الولي أشدُّ من معرفة الله. أي: أدقُّ، وأخْف، وأغمضُ، لظهور البشرية، واتحاد الجنسية.

[شرحُ البيت الأربعين]

ثم قال الناظم نفع الله به:

فإن شئْتَ فاقدُمْ هكذا الشرْطُ بيننا   وإلا فلا تُقْدِم فإنّك آخِرُ

هذا مرتبطٌ بقوله آنفاً في النظم: «وما هكذا شرط الهوى»، الخ.
وقوله:

*** وإلا فلا تقدم لأنك آخر ***
هو ظاهرٌ لا غبارَ عليه.

[خاتمة الكتاب]

وهذا ما يتيسَّر إيرادُه في هذه العجالة، مع غلبة العجْز والتكاسل، واشتغال البال من عوارض الزمان. وهذا النظمُ مشتملٌ على إشاراتٍ دقيقة، ومعانٍ لطيفة، لا يغوصُ في تيارها، ويستخرج نفائس جواهرها ودررها؛ إلا من حَظيَ بشميمِ عَرارِ ذلك المقام، وأثلج صدره بشَرْبة من تلك المدام.

على نفسِه فليبْكِ من ضاعَ عمرُه   وليسَ له فيها نصيبٌ ولا سَهمُ

وإنما أوردنا في هذه العجالة ما ظهر لنا من كلامهم، مع القصور والتقصير، ونستغفر الله العظيم مما زلَّ به القلمُ، وقصُرَ عنه الفهم، إنه ولي الفضلِ والإنعام، وصلاة الله وسلامه على رسوله المختار في البداية والختام.

شرح رؤيا
الشيخ عبدالله بن محمد باكثير

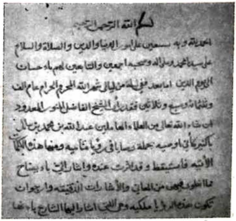
للسيد العلامة المحقّق
الحبيب احمد بن أبي بكر بن سميط
المتوفى بزنجبار سنة 1343هـ

تمهيد

كانت رؤيا الشيخ عبدالله بن محمد باكثير، التي رآها في شهر محرم 1337هـ، ذات دلالات على قوة الارتباط بينه وبين شيخه الحبيب أحمد بن أبي بكر بن سميط. وقد طلب من شيخه المذكور أن يشرح له معانيها، فكتب له السطور الآتية.

الأصل المعتمد عليه:

يقع أصل الشرح في 10 صفحات، غير مؤرخة، وهي بقلم المؤلف رحمه الله.


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله وبه نستعين على امور الدنيا والدين والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين والتابعين لهم باحسان
الى يوم الدين اما بعد ففي ليلة من ليالي شهر الله المحرم الحرام عام الف
وثلثمائة وسبع وثلاثين فقد ذكر لي الشيخ الفاضل الاخ المعدود
ان شاء الله تعالى من العلماء العاملين عبدالله بن محمد بن سالم
باكثير كأني اوصيه جملة [illegible] في رؤيا منامية وعنها هذه الكلمات
الآتية فاستيقظ وقد اثرت عنده واشار الي بايضاح
ما انطوت عليه من المعاني والاشارات الدقيقة وارجو ان
تكون هذه الرؤيا ملكية وهي التي اشار اليها الشارح بانها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُلله، وبه نستعين على أمور الدنيا والدين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين،

أما بعد؛ ففي ليلة من ليالي شهر الله المحرم الحرام عام ألف وثلثمائة وسبع وثلاثين، فقد رأى الشيخُ الفاضلُ المنوّر، المعدود إن شاء الله تعالى من العلماء العاملين، عبد الله بن محمد بن سالم باكثير، كأني أوصيه بجُملةٍ وصايا في رؤيا منامية. ومنها هذه الكلمات الآتية، فاستيقظ وقد أثّرت عنده، وأشار إليَّ بإيضاح ما انطوى فيهن من المعاني والإشارات الذوقية.

وأرجو أن تكون هذه الرؤيا ملَكيةً، وهي التي أشار إليها الشارعُ بأنها جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة، ولعلها إن شاء الله لإشارة الترغيب، وفقني والشيخَ المذكور لمرضاة الله، ونظمنا في سلك عباده الصالحين، ورزقنا وإياه الاتباع لسيد المرسلين، آمين.

[كلمات الرؤيا]

وحاصلُ ما فهمه المُوفَّق من تلك الوصَايا هذه الكلمات، وهي:

«إذا نظرت إلى مساوئ الناسِ فليكن الغالبُ عليك النظرَ إليهم بعين الحقيقة، كيلا تحتقرهم. وانظر إلى نفسك بعين الشريعة كي تمقُتَها، ولا ترضى عنها. وإن لم يكن فيك ما فيهم»، انتهى.

ولا بأس بإيضاح ما تيسَّر منا في هذه العجالة، مع قصور الفهم، لما فينا من القصور والتقصير، ولكن الميسور لا يسقط بالمعسور.

* * *

اعلم أن الشريعةَ المحمدية هي الأوامرُ والنواهي، وقد جاءتْ بتكليف الخلقِ ليمتثلوا فيثابوا، أو يخالفوا ويعاقبوا. والله سبحانه وتعالى هو الخالقُ لأفعال العباد، كما يعتقد أهلُ الحقّ، فكل شيءٍ عنده بمقدار، قال تعالى: والله خلقكم وما تعملون [الصافات: 96]، وقال تعالى: قل كل من عند الله [النساء: 78].

والعبدُ يعاقب على ترك المأمور وعلى فعل المنهيِّ، اعتباراً بظاهر الكسب. وأما الحقيقةُ فشهودٌ لما قضى الله وقدَّر، وأخفى وأظهر. وإن شئت فقل: هي النظرُ لبواطن الأمور، وشهود الفعل عن الله، قال تعالى: قل كل من عند الله [النساء: 78]، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فقول العبد: إياك نعبد، حفظاً للشريعة من حيث أضاف العمل لنفسه، وقوله: وإياك نستعين إقرارٌ بالحقيقة من حيث تبرؤُه من القيام بشيءٍ من عبادته، وافتقاره فيها إلى عَون ربه.

وليس للعبد أن يحتجَّ بالقضاء والقدر، فإن المولى سبحانه وتعالى لم يطالب عبادَه يوم القيامة بالقدَر، وإنما يطالبهم بأمره ونهيه، ولله الحجة البالغة على عباده، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون [الأنبياء: 23]. فإثابته فضلٌ منه، وتعذيبه عدلٌ منه.

ثم الناظر إلى مساوئ الناس، فتارةً ينظر إلى المسيء منهم بعين الشريعة، فينسب الأفعال إليه بحسب الصُورة، ويراه عند المخالفةِ أنه تجرأ على الله بمخالفته أمرَه، وفعله ما نهَى عنه، وأنه تعرض لسخط الله، فيحتقره لذلك، وينقّصُ ذاته بما ارتكبه من الخطايا، وهذا غلطٌ. والذي ينبغي منه: أن ينكر عليه، ويستقبح فعله، لا تحقيره وتنقيص ذاته وتعييره.

وقد قالوا بجواز الاحتجاج بالقدَر لمنع التعيير فقط، واستدلّوا على ذلك بقصة سيدنا موسى وسيدنا آدم عليهما السلام كما في «البخاري»: أنهما اجتمعا في عالم الأرواح أو الأشباح، فقال موسى لآدم: أنت أبو البشر الذي أخرجتنا من الجنة بخطيئتك! فقال له: ألم تجد في «التوراة» أن الله قدَّر ذلك عليَّ، أي: كتبه في اللوح المحفوظ، قبل أن أُخلق بأربعين سنة؟. ولذلك قال ﷺ بعد أن أخبر بهذه القصة: «فحجَّ آدمُ موسى»، أي: غلبه، انتهى.

ولما تقرر أنّ الذي ينبغي هو الإنكارُ على المسيء لا تحقيره وتنقيصُه، أوصى الموصي أن لا ينظر إلى مساوئ الناس بعين الشريعة المحْضَة التي مقتضاها إسنادُ الفعل إلى الفاعل، لأن ذلك مقتضٍ لذمِّه وتحقيره ذاتاً.

وأفهَم التقييدُ بالأغلبية، حيث قال: «فليكن الغالبُ عليك النظَر إليهم بعين الحقيقة»: أن نظرَهم بعين الشريعة مطلوبٌ أيضاً، ليستقبح الفعل، وينكر على فاعله.

وإنما يكون النظر بعين الحقيقة هو الغالب، أعني: غلبةَ الشهود. فيراعي المقامين، أي: الشريعة والحقيقة. فبمراعاة الأولى يكون كارهاً لما فعله المسيءُ من المخالفة، كما هو شأن كل مؤمن. قال تعالى: وهو الذي حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان [الحجرات: 7]. وهذا السر موجودٌ في كلّ من كان فيه وصفُ الإيمان، فإنه يبغضُ أهلَ المعاصي وإن عمِل بعملهم، ويحبُّ أهل الطاعات وإن لم يعمَل بعملهم، ولإمامنا الشافعيِّ تغمده الله برحمتِه كلام عجيبٌ منظومٌ في هذا المعنى وهو قوله:

وأكرهُ من بضَاعتُه المعاصِي وإن كنا سواءً في البضَاعةْ

والمرادُ بالغالب: أن يكون حالُ العبد في الإيمان بقلبه غالباً، حتى يصير مشاهداً بقلبه لربه. وقيل: كلّ شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصُول. ولهم تعبيرٌ آخر في هذا.

فقد ظهر لكَ ما يكون في العبد بمراعاة الشريعة كما تقرّر.

وأما الحقيقة: فبمراعاة العبد لها يعلمُ يقيناً أنه عاجزٌ عن التنصل والتخلّص مما كُتب عليه، وأنه مكرهٌ في نفس الأمر، وإن عوقب بمخالفته الشريعةَ بظاهر الكسب، فتفطن لهذه الدقائق، فإن في هذه المواضع مزلةُ الأقدام، وموقف الأفهام، من حيثُ الحكمة. وحينئذ لا يحقّر المرء ذات المسيء وإن كان يستحق الذمَّ من حيث إسنادُ الفعل إليه، والمؤاخذة به، كما هو شأن الشريعة.

وينبغي أيضاً، أن لا ينظر بعين الحقيقة المحضة، لئلا يشُمَّ للجبرية والقدرية رائحةً، قال سيد الطائفة الجنيد قدس سره: «إياك أن تقفَ في حضرة شهُود الفعل لله وحدَه دُون عبادة، فتقع في مهواة من التلف، ولا ترى مع ذلك ذنباً فتهلك مع الهالكين»، انتهى.

* * *

والمرادُ بقول الموصي: «فليكن الغالبُ»، إلى آخره: أنه ينظر إلى الشريعة والحقيقة نظراً لا يستغني بأحدهما عن الآخَر، ويكون الغالبَ شهودُ تصاريف الحق في كلّ شيء، فإذا غلب هذا في العبد؛ ارتقى إلى مرتبة أهل البقاء بعد الفناء، وهم الذين يشهَدُون قبل كل شيءٍ ذاتَ مولاهم وصفاته وأسماءَه. فإذا غلب نظرُ العبد بعين الحقيقة، لم يحقر ذات المسيءِ كما تقرّر، ولعل المولى يتداركه بفضله وكرمه، فيوفقه للتوبة وللعمل الصالح.

وللنابلسي قدس سره:

رُبَّ شخْصٍ تقودُه الأقدارُ	للمعالي وما لذاكَ اختيارُ
يتعاطى القبيحَ عمداً فيلقى	جميلاً وفلسُه دينارُ
كلما قارفَ الذنوبَ أتته	توبةٌ طهّرتهُ واستغفارُ
حكمٌ حَارت البريّةُ فيها	وجَديرٌ بأنَّها تحتَارُ
وأمورٌ مِن المهيمن دلّتْ	أنّه الله فاعِلٌ مختَارُ
فازَ من سلَّم الأمُور إليه	وشقَى مَن غرّه الإنكارُ

انتهى، من أبياتٍ له تقاربُ عشرين بيتاً.

* * *

وأما وصية الموصي بقوله: «وانظر إلى نفسك بعين الشريعة»، فلما في ذلك مما يطلبُ من الشخص نفسه الذي أفهمه التعليل، وهو قوله: «كي تمقُتَها ولا ترضى عنها».

وتوضيحُه: أن النظر بعين الشريعة مقتضٍ لإسنادِ الفعل إلى الفاعل، نظراً للصورة، وكونه متمكناً بحسب الظاهرِ من الترك. والنظرُ إلى هذا هو النظرُ بعين الشريعة التي جاءت بتكليف الخلق. وبهذا يستشعر ويعترفُ بعيوبها ونقصِها وتقصيرها، وهو المطلوبُ من الشخصِ بأن يتهِمَ نفْسَه دائماً ولا يرضى عنها.

وقوله: «وإن لم يكن فيكَ ما فيهم»، أي: كُن ناظراً إليها بعين الشريعة. ويلزم من ذلك مقتُها إن فعلت ما يوجِبُ لذلك، وامقُتْها وإن لم يكن فيك ما في أهل المساوي، لأن النفس طُبِعت على المخالفات والميلِ إلى الشهوات. ألا ترى إلى قول الصديق عليه السلام: وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء [يوسف: 53]. وهذا دأبُ الأكابر، فإنهم لا يزالون يتهِمُون أنفسهم مع استقامتهم.

فتفطّن، أن النظر بعين الشريعة إلى النفس وسيلةٌ إلى مقتها، وليس من شروط المقْتِ أن تكون النفس فعلَتْ ما يوجب لذلك من المعاصي، بل تقصيرُها في جانب الله، لأن المرء مهما كان مستقيماً طائعاً لمولاه، قائماً بالفرائض والنوافل ما أمكَن، فهو مقصّرٌ عن استيفاء حقوق الله، كما قال نبيه عليه السلام: «سبحانَ من لا يعلم قدرَه غيرُه، ولا يبلغ الواصفُونَ صفته»[35]. وقال تعالى: وما قدروا الله حق قدره [الزمر: 67]. أي: ما عظمُوه حقَّ تعظيمه. وقال سيد الطائفة الجنيدُ رضي الله عنه: «لا تسكن

35. هذه الجملة تكررت في بعضِ الكتب منها «العلل» لابن أبي حاتم، و«شرح السنة» للبغوي، وممن جعلها حديثا نبوياً الصاوي في «حاشيته على الجلالين»، ولم أجد له تخريجاً في كتب الحديث التي بين يدي.

إلى نفسكَ وإن دامتْ طاعتُها في طاعة ربك»، انتهى. وهذا ظاهرٌ، إذ قد تكونُ الأعمال مدخولاً عليها، أو يعتمد عليها صاحبها، وحسبك ما أورده الغزالي في هذا المجال.

كتبه الفقير إلى مولاه القدير
أحمد بن أبي بكر بن سميط
حامدا مصلياً، يوم 9 من صفر سنة 1337هـ.

ملحقٌ مباركٌ
فيه تشطِير الحبيب شيخ بن محمد الجفري (ت 1222هـ)
على قَصِيدة العارف النابلسي

قال العلامة الحبيب شيخ بن محمد الجفري باعلوي، في كتابه «كنز البراهين»[36]:

«وأيضاً من العجائب الغريبة، والاتفاقات العجيبة، أن أتى إليَّ بمكة من حبه بالقلب زاوي، السيد أحمد بن العالم العلامة عبدالرحمن الزواوي، بقصيدة لمحيي الدين بن عربي في زمانه، وعبدالكريم الكيلي بوقته وأوانه، ذي الفتح القدسي، بالمعنوي والحسي، الشيخ الكبير الإمام عبدالغني النابلسي. وأشار عليّ لا مشافهة، بل تلويح في مضمون الكتابة لا بالتصريح، بأن أعجِّزَها وأصدِّرها، وأتلو إثْرَها بنورِها.

فأجبتُه إلى ذلك، وإن لم أكن أهلاً لما هنالك، وتلك الإشارة وقعت في سنة حجتي الثالثة، وهي سنة خمسة وتسعين من بعد المائة والألف، من هجرة سيدنا محمد خاتم النبيين. فأحببت إثبات ذلك هنا لمناسبتين:

إحداهما: كون التعجيزين والتصديرين كانا بحَجَّين.

والأخرى: اتفاق وقفة الاثنين بيوم الاثنين.

فلقد تعلق فقير مشرقي بمغربية نعتية، ومسكين يمني تعلق بشامية قوية ذاتية، ولا يقال: أين الثريا من السهيل، لا سيما في القول والفعل، كما قيل. وإن كان بينهما ما بينهما من البين، فبعد المشرقين والمغربين، مقابلٌ من دون مين.

---

36. كنز البراهين: ص 503-803.

وبا طالما اتفق وارد بصادر، بعون الله. ووقع حافر على حافر بفتح الله، فكم من مشى في طريق بدلالة الغير ووصل بفضل الله وما أصابه ضير. والعذر مطلوب من الناصبين لأفعال القلوب، والتعجيز والتصدير هو هذا[37]:

لذَاتي بِذاتي لا لكُمْ أنَا ظاهِرُ ... ومن يدّعي ما قلتُه فهو فاجِرُ
لأني بلا كيفٍ وما قبلي كَائنٌ ... وما هَذه الأكوانُ إلا مظَاهرُ
تقيّدتُ والإطلاقُ وصْفِي لأنني ... بحَولي تجليتُ بما هو بَاهِرُ
أنَا الأولُ الآخِر حيٌّ وباقيٌّ ... على كُلّ شيء حينَ لا حَينَ قَادرُ
ومرتبَةَ التقْييدِ أظهرتِ رحمةً ... وقد وسعَتْ ماذا له أنا فاطرُ
تحليتُ تحقيقَ الحقائقِ مبدعاً ... ومرتبَة الإطلاقِ إني سَاترُ
وتلكَ بمخلُوقٍ وهذي بخَالقٍ ... ولا عَين في عينٍ وما ثمَّ صائرُ
وتلكَ بذاكَ دُون شَكٍّ وريبَة ... تسمَّتْ وفي التحقيقِ أينَ التغايرُ
وأحببتُ بالتكليفِ إظهارَ حكمَةَ الـ ... ـعلا لي علَى خلقِي بما صَادرُ
فلولا بطُوني وسط الاشياء ما انجَلى الـ ... ـظهُورُ وحكْمِي ما أنَا فيه جائرُ
وصَوني لأفعَالي عن العبَثِ اقتَضى ... تصَرّفي فيما كان مَاضٍ وغابرُ
وفي مقتضَى ما قَدَري قد قضَى به ... خِطَابي ومن لم يمتَثِلْ فهو كافرُ
جسُومٌ وأعراضٌ تلوحُ وتختفي ... لناسٍ وعن ناسٍ أوائلُ أواخِرُ
هي تَتراءَى في جَلاءٍ وخلْوةٍ ... وما هيَ للمحبُوبِ إلا ستائرُ

37. ميزنا الأبيات الأصلية عن التشطير بتسويدها.

وخلفَ حجابِ الكَون ما أنتَ طالبٌ لـه مـن خبايَا لا تعَدُّ ضَمائـر
وصـوتٌ بـلا حـرفٍ سـماعٌ بـلا غِنَـا ومـن لفظَـة المقهُور يلـزَم قاهـرُ
تأمّلْ حُـرُوفَ الكائنـاتِ فإنهـا مـن المـلأ الأعْلَـى دوامـاً تبـادِرُ
بتَبْيـينِ تعريـفِ الملمّـحِ مـا بـدَتْ تشِـير إلـى معنًـى بـه أنـتَ حائـرُ
وبـرقُ الحمَـى هـذا الوجُـودُ وميضُـه وراعِـدُه أنبَـا بمـا هـو ماطـرُ
بحـقّ حقيـقٍ حقّـقَ في محلّـه ولكـن بمـا تجنيـهِ تعمَـى البصَائـرُ
فيـا ظاهـراً في خلقِـه وهـو بَاطـنٌ بـلا مرْيَـةٍ في أيّ مـا هُـو دائـرُ
ويـا مبدِعـاً في الكَونِ مـا هـو مُبدَعٌ ويَـا باطنـاً في أمـرِه وهـو ظَاهـرُ
تجليـتَ لـي في كُلّ شـيء ولـم أكُـنْ بغَيـرك بَاقـوراً لمـا أنـا باقـرُ
بِـذا الكَـون والتكْويـنِ كَان ولـم أر سـواكَ فمنظُـورٌ كمـا أنـتَ ناظـرُ
وللقَلـبِ منّـي قـد ظهَـرْتَ بكُـل مَـا لـه أتَـراءَى مـا بِـه يتبَـادَرُ
بطَنْـتَ وفي سـرِّ البطُـون حَقِيقـةٌ ظهَـرْتَ ولـم تتكـرْكَ منـي الخواطـرُ
بكُـلِّ مَلِيـحٍ بـل بكُـل مليحَـةٍ تلاميحُـكَ لاحَـتْ بمـا هـو وافِـرُ
بـدُونِ خيـالٍ بـل ولا وهْـمَ مُوهـمٌ تراءيـتَ حتـى حقّقتْـكَ الضّمائـرُ
ومـا مَذهبـي حـبُّ المظَاهـر إنّمـا بحُبِّـكَ أعصِـرُ مـن بَدا لـي مُعَاصِـرُ
ومـا زلـتُ مـن حُبّـي بحبِّـك لـم أزَلْ أحـبُّ الـذي دانَـتْ عليـه المظاهـرُ
أمَـا ومقَـامِ البيـتِ والحجَـرِ الـذي قـد التقـمَ صـكًا حـكَاهُ الأكابـرُ
وذلِـكَ بالسِّـر وبالجهـر دائمـاً عهِدنـاهُ قـد دارَتْ عليـه الخنَاصـرُ

لأنتَ المنَى والقصْدُ يا غايةَ المنَى ... فلولاكَ ما كنّا وكانتْ عناصِرُ
فما لي سِواكَ كُلّ حين أريدُه ... وإن لامني فيكَ القنَا والبواترُ
وما مِلتُ يوماً عنك للغَير سَلْوَةً ... فحاشَا سلوّي لسِواكَ يعَاشرُ
حقيقتي هَذِي علمُكَ كافٍ لها ... وكيفَ ويا نُوري معي أنتَ حاضرُ
وانتَ رفيقِي لا رَفِيقَ سِواك لي ... بأي محلّ حاضِراً أو مسَافرُ
فهذا اعتِقَادي فيك قَلْباً وقالباً ... وإنْ أنَا عن إيفَاءِ حقّك قاصرُ
أحبُّك لا بي بَل بكَ الحبُّ منةً ... بِذَاك وذا لي مقبلٌ ومُدابِرُ
فكمْ مِنّةٍ في منّةٍ بعْدَ منة ... عليَّ كما أني بكَ الآن شَاكرُ
يقولُ عَذُولي لا تخاطِر بقُربه ... فقلتُ له دعْ عنكَ نكر ما أنتَ ناكِرُ
أخَاطِر برُوحِي دون مَطْلبي عامداً ... وهل يدركُ المأمولَ إلا المخاطرُ
وإني لأدرِي أن طرْقَ وصَاله ... بتوفيقه المرضيّ الذي أنا ذاخِرُ
شَفا جرُف هارٍ محقّقُ أنها ... تدورُ على الأقْوام فيها الدوائرُ
ولكنْ له أسْلَمتُ نفْسي فإن يردْ ... على مدَّعيها كيفما هُو سائرُ
فحسبي رِضاهُ في الأمُور وشأنه ... هُداهَا وإن يضْلِل فما هُو جائرُ
وماذا عسَى نفسِي تعادلُ في الورَى ... لعُشْرِ عُشر معشَار ذرّة تصَاغرُ
وإن كانَ من تحقيرهَا واحتقارها ... فمن أجْلها عن مَالكي أنا نافرُ
فرَزْتُ به منّي إليه لأنّني ... بطائره الميمُونِ قَد صرت طائرُ
وذلكَ يمّنٌ قد رآه لكونَني ... تحققْتُ أنْ لا غير والأمرُ ظاهرُ

فكانَ اضطراراً كونُ قلبي موحّداً بتوحيدِ من لا يعْتريه التغَايُر
بوحدَتِه تَوحيدُه كيفما جرَى له وبهِ لا بي أنَا اليوم ذاكرُ
أهيمُ بأنفَاسِ النّسيم وإنني دواماً بها ما دمتُ بالليل سَاهرُ
لأني بعشْقِ العشْقِ أهوَى عليلَها بطيبِ الحمَى لا بالنسَائم عاطرُ
وأُظهِرُ أني قد ظفِرتُ بعلمِهمْ محدّث بالنعْما فلا أنَا سَاخِرُ
مع أنني منبُوذٌ عنه بمعْزِلٍ وقلبي بذاتِ الخالِ لا العلْم ظافرُ
ودونكَ شرْعي إن هويتَ طريقَتي بها خُذْ وناصِرني فإنك ناصِرُ
وبادِرْ معي في وقْتٍ لا وقْتَ بعْدَهُ فإني مدَى عمْري إلى الحبِّ سائرُ
وكنْ هكَذا مثلي فَقيراً من السِّوى على كل حَالٍ شبْهَ من هو غايِرُ
من الحول والقُوّة تبرًّا على المدَى ومن نفسِه تأتيكَ منك الذخائرُ
وغبْ عنكَ وامحُ نقْطةَ الغَينِ ثابتاً ولا تخش من عيبِ الذي هو ناكرُ
وجُل جَولان البهْلوانِ بفرْقِه وغُصْ في بحَار الجمْع تبْد الجواهرُ
ولا تكُ من قَومٍ أماتتْ ذنُوبهم حياةُ لهم والمدَّعي ما يبَاشرُ
هنا والكبائرُ والصّغائر أذهبتْ نفُوساً لها الأجسامُ منهم مقابرُ
فإنّ طريقَ الحقِّ سَهلٌ سلوكُه على من بنور الحقّ ناه وآمرُ
يراهُ سَبيلاً مستقيماً بعينِه وأوضَحُ منه ليس يدركُ ناظرُ
وليسَ بذكْرٍ أو بفكْرٍ تنالُه ودعوَى وزعْم من هَواهُ التشاجُرُ
فما كُل داعٍ بالدَّعاوَى ينال ذا سوَى بالصَّفا والمحْوِ عما يغايرُ

وهـذا حجَـابُ النفـس يصعبُ خَرقُـهُ ففـي خرقـه قـد ضَاع مـن هو شـاطرُ
فنصبـاً علـى التمييـز تزعُـم شـأنكَ وعقلُـكَ منـه وهـو للحَـقِّ سَـاترُ
فمُتْ في الهوى تحيَ وأغمِضْ عن السِّوى عيونـا وأبصـاراً لمـا أنـت باصِـرُ
متـى تعْـدِمِ الكُـــل بسِـرٍّ وظَاهـرِ تقَـرُّ بـذاك الوجْـهِ منـك النّواظـرُ
طلبْـتَ مقامـاً بـذلُ روحِـكَ شـرطُه وذاك قليـلٌ فيـه إن كنْـت خابِـرُ
وكيـف تـرومُ للـــذي أنـتَ طالـبٌ وأنـت علـى مـــا أنْـتَ نـاهٍ وآمـرُ
ومـا هكَـذا شـرطُ الهـوى إن تُـرِد فَـرِدْ بعجْـزٍ وفقْـرٍ دائمـاً لا مكابـرُ
لمــــوردُ عــــزٌّ دُونـه كُـــل مَـــوردٍ فنـاءَ الفنَـا وانْـسَ الـذي أنـت ذاكـرُ
ووطِّـن علـى الإنـكَارِ نفْسَـك والأذى تحمّـل لـه مـن كل مـن هُـو فاجِـرُ
أليـــس تـرى مـن دون شــــك وريبـة فمَـن عسَـلاً يجنـي علـى النحْلِ صابرُ
وقـــد كثُــــرتْ فيـه العـواذِلُ غيـرةً عليـه وكـــلٌّ عـن ترقيـه قَاصِـــرُ
وقد بـان عـن ذا الشـان يا صَاحِ مُسْعدٌ وقـــلَّ لطُـــلاَّبِ الحقيقَـة ناصـرُ
فإن شئْتَ فاقدُمْ هكذا الشَّرْطُ بيننا ولا تعبَـا بالمكـرُوه فالـكُلّ سَـاخِرُ
بهـذا المقَـامِ انْ تَرْتضـي مثْلَنـا فقُـمْ والا فـــلا تُقـــدِمْ فإنـك آخـرُ
بـذا واردي قَـدْ جـاءَ عنـد ورُودِه ومـا واردٌ إلا مِـنَ اللّه صـادِرُ
ومــا مُؤْمِــنٌ للّه اسْــلَمَ نفسـه وفـادَى بهـــا إلا وبالجبْـتِ كَافِـرُ
لتَعْجِيزهَـا تصــــديرُها ضَابـطٌ بَـدا بتَاريـخِ (هَـادٍ بَاطـنٌ وهـو ظَاهِـرُ)

احسن الله عاقبة من اول فاحسن التأويل، وستر على من قصر في القال والقيل.